مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة
1999

الأعمال الإبداعية

حلم على نهر

جار النبى الحلو

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

لوحة للفنان : محمود سعيد

حلم علی نهر

حلم على نهر

جار النبى الحلو

مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

حلم على نهر

تأليف: جار النبى الحلو

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: **محمود الهندى**

المشرف العام:
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

إهـــداء

إلى
أمى . .
التى هدها الحلم أيضا
جار النبى الحلو

ولما كانت الليلة قبل الأخيرة لتحقيق حلمه الذى راوده لسنوات ، فقد دخل ظلمة الليل البهيم ، وقال سلام عليكم ، ونزل مع المنحدر . . خفيفًا يكاد يطير به الحلم . ترك الطربوش هناك فوق الخوان ، ومضى بجلبابه المعطر ، نزل مع المنحدر مخلفا وراءه اختناق البيوت وصراخ العيال ورائحة الصنان . . وعبر قضبان قطار الدلتا فى الظلمة دون تعثر ، وهاجمه دفء رطب من ناحية النهر ، وأحس فى الفضاء الرحب برهبة أحبها وجلال يدرك كنهه . ثم خرج القمر يلتمع من وراء السحب ، والنجمات تنير طريقه ، والنهر يناديه ، يشده إليه . قال لنفسه :

أنا آت أيها النهر . آت .

داعبته النسمات ، وانفتح العالم رحبا أمامه ، وغمره الفرح لرؤ ية النهر . ود لو يحتضن النسمة الرقيقة ، ونقيق الضفدع ، وهسيس الشجر والحصى فى الأرضين ، ود لو أن لرائحة البرتقال أكفًا تحمله وترمى به فى النهر ، يغتسل ، ويعوم عمرا بأكمله ، ووراءه يعوم الأوز والبط والسمك والمراكب المسافرات . وأسرعت خطاه .

قال :
آت أنا

شم رائحة النهر ، ووقف أمامه خاشعا . ضرب برجله فى الأرض وتمتم :
هنا

كان فى النهر قمر ، وتألقات مبهمة . خاف لحظة ، وخطف بصره نجم يهوى محترقا ، بسمل ، وقال لنفسه :

لن تخرج جنية النهر بشعرها الطويل الناعم وبياضها الناصع ونهديها الأبيضين ، ويأليتها تخرج . . الآن يهون كل شىء ما عاد يثنيه أحد ولا عفاريت الدنيا .

استند على جزع شجرة التوت الضخمة التى ما تزال محتفظه بكل ثمار توتها الأحمر .

ومن يستطيع أن يقربك أيتها الشجرة البعيدة عن العالم . . والخلق والعمار . . عن المحلة الكبيرة التى تتنفس رائحة الدخان والأصباغ ، وتتلون بالبول الأحمر ، وقىء العيال بجوار الحوائط . . أيتها الشجرة . . بكل اخضرارك وقوتك بعيدة عن أمى وأبى وزوجتى وولدى الصغير . . من ؟ ولكن هأنذا ملتصقٌ بك ، وعيونى فى النهر .

وسرح قليلا ، ورأى أمه بجمالها الأخاذ تقف على باب دارهم فى حارتهم السد وتكلم الجيران ، الرجال قبل النساء ، وحين تجد نفسها وحيدة تكلم القطط .

التصقت به زوجته العريانة ، بتلك الرائحة ، وتلك الليونة ، تدللت على صدره ، وقالت :

لا يا سيد

هرش رأسه ، ومن على قفاه أمسك بحشرة نطت من الشجرة ، فحصها دون أن ينظرها ، شم يده فحسب ، ثم نهض ، تقدم من النهر ، وبقدمين ثابتتين وقف شامخا ، وقال :

ــ هنا

وراح بصره فى عمق النهر .

ما بال السمك نائما فى هذه اللحظة الفريدة فى هذا الزمان ؟ ماله لا يحتفل بى . . أنا سيد . . الذى جئت من المقابر والحارات الضيقة ومن خنقة حياة أبى . . ضربتنى يا أبى كثيرا ، وشردتنى فى الحوارى . . أبيع رسوم مصطفى كامل وأحمد عرابى ، وأبيع بقايا لحم جزارتك ، وأقابل خالى فى الخفاء ، والتقى بكليلة ودمنة خلسة . . كثير هذا يا أبى . . لكنى اخترته . . هذا النهر .

وسكت .

تسلل إليه هدوء لم يألفه . ثم نادى بصوت عال :

ـ يا نهر .

نهر . .

خرجت عالية متوترة ما بين الحزن والفرح ، مرتعشة بين الخوف والأمل . نظر وراءه . بقع ضوئية بالكاد يراها . هى المحلة الضوء الشحيح ، وضجة المصنع الجديد ، وخبطات النول الواهنة التى تموت . بينه وبينهم مسافة هى النهر . . والفضاء الهائل . ثم جسر قطار الدلتا .

تك تك تك .

ويركبه هو الصغير ليلف به بلاداً لا يعرفها ، لكنها بلاد فقيرة ، فلا يرى سوى الغنم والجمال والكلاب والفلاحين غائصين فى خضرة غيطانهم ، ولما كبر عرف أنها ليست بلاداً . حقول وفضاء وترع وحقول . لكنه كان يحب هذه الفرجة فى قطار الدلتا ، ويحب شكل الرجل الذى يسأل عن التذكرة بملل شديد ، وكان يشترى بمليم فول سودانى ، وبمليم لب ويقطع رحلته كلها وهو يقزقز .

نهر به مراكب ، وفضاء به تراب ، وجثث حيوانات نفقت ، وحديد من أيام الحرب الأولى ، وزبالة قديمة وكناسة حديثة ، وأطفال بعيون كالنجمات المتألقات يحلمون بالسندباد وخاتم سليمان . وفى البعيد وابور الطحين . . وابور الخواجه ينى ، وأمامه شجرة الزنزلخت . . ثم المحلة البيوت الواطئة والعيال فى الأركان نائمون فى أحضانهم المعظمة اللوح الاردوازى عليه أحيانا سورة ، وأحيانا كلمة زرع بدون حصد ، وأحيانا ٣ مكتوبه بالمقلوب . والمسجد الصغير ، ومقابر الشهداء ، وهناك حارتهم المطلة على المقابر وسيدى الغمرى .

تك تك تك .

وأفاق . وأحس بأن الليل جليل ، ووقف كأنما فى صلاة ، وسأل نفسه :

وكيف يكون البيت ؟

ضربت عصفورة غصنا برفة فزع من جناحيها فى ظلمة كثافة الشجرة .

أعرف . . تتفرج علىّ الطيور المخبوءة فى الشجر لكنى أعرفها كلها ، وأعرف شقشقتها وتنفسها . . وبين هذه العصافير النائمة بلا زقزقة يوجد طير غريب .

ورمى بحصاة صغيرة فى قلب النهر ، فسمع صوتا هادرا . رجع للوراء . ورآه . . رآه على مهل ، ينقشع عنه البخار وتتسف الرؤية ، والغريب أن سيدا لم يرتجف ، بل بحلق مشدوها ، ما الذى يرى ؟ وحطت على نفسه الطمأنينة ، وباغته فضول ، بحلق فرآه خارجا من قلب النهر ممتطيا بغلة . كان رجلا راكبا بغلة ، يطلع بتؤدة ، ورغم العتمة لمحه على وشك الابتسام ، والبغلة مهيبة المنظر ، قوية البنيان ، مغسولة بماء النهر . ضربت

حافر رجلها اليمنى بالأرض ، فاهتزت الدنيا من تحته ، المحلة كلها تهتز البيوت الفقيرة عند المقابر والبيوت الغنية فى شارع محب ، والمصنع ، ودكان أبيه وقعت فيه المرآة وتحطمت ، وتناثرت كل الوجوه ، سمع صوت الانفجار الذى قرأ عنه فى كتب السيرة ، وأدركه انشقاق الأرضين ، فخطوة ثانية ، وأصبحت البغلة أمامه واقفة على أرض صلبة ، وابتسم راكبها وأحنى رأسه ، وقال لسيد رابط الجأش :

ـ ليلك طيب وبديع .

رد سيد بدهشة :

ـ من أين خرجت . . هل حقا من النهر ؟

ضحك راكب البغلة ، فضوى بالسماء نور ، وقال :

ـ أنا صياد . . عندى مركب وبغلة . . حين أزهق من المركب أركب البغلة وأحيانا كثيرة أظل سابحا فى النهر ضد التيار . . أظل الأيام والليالى سابحا . أنام فى القاع مع السمك ، استأنس به ، ويستأنس بى ، وبعد أن أفرغ كل حكاياتى للسمك ، أمضى سابحا ضد التيار ، وأركب بغلتى ومركبتى حتى أعثر على كنزى .

سأله سيد بدهشة أكبر :

ـ هل ضاع منك كنز ؟

قال من فوق البغلة :

ـ ضاع فى النهر . . كنز ثمين . . رمته أمى المجنونة حين خدعها أبى مع جنية على شط نهر ذات ليلة مقمرة ، احترق أبى ، ورمت أمى بالكنز الذى هو ملكى ، آلاف السنين مرت ، لكننى سأجده طالما فى الدنيا أنهر .

تنهد سيد فى حيرة ، وقال فى حزن أطاح بكل فرحته الأولى :

ـ وما الذى رماك إلى هنا ؟

قفز الصياد إلى الأرض ، وربت على كفل بغلته ، التى استدارت خفيفا ، وحمحمت ، ثم راحت تداعب القمر بعيونها السود البراقة ، وقال كما لو أنه سيتكلم أخيرا :

ـ آه يا سيد . . يا سيدى . . لو تعرف الحكاية .

أحس سيد بروحه تسوخ حين ردد راكب البغلة

اسمه ، غير أنه أنصت له وهو يقول :

ـ كنت نائما مع بغلتى فى قاع النهر ، وكانت تحكى لى عن رخ تافه نسج حول نفسه آلاف الحكايا الكاذبة ، وكنت فى غاية الانسجام حين وقعت فوق صرتى حصاة صغيرة ، فنهضت مثل فرسان أول الزمان ، وامتطيتها ، وقببت بها على وجه النهر لأراك . أنت الذى تحلم بأن يكون لك بيت بجوار هذا النهر .

رجع سيد خطوة للوراء ، وقال :

ـ هنا . . أريد البيت هنا . . بعيدا عن القبر . . أنا والبيت والنهر والسماء . . هنا فى الوسع . . هل اخطأت يا سيدى ؟

لف الصياد حول نفسه فاردا ذراعيه ، وقال بهمس العاشق :

ـ مكان بهيج . . واختيار رائع . . هنا سيكون البيت . . ثلاثة مطارح وفناء واسع . . وشباك على النهر ، وشباك بجوار الباب وشباك على الشارع من الخلف وشباك على الحديقة . . نعم . . ستنشىء حديقة . . فى هذا الركن ازرع النعناع والريحان . . وهنا ازرع الثوم . .

وهنا شجرة ياسمين ، وشجرة دفلى بزهور حمراء ، وأمام الباب وقريبا من شاطىء النهر ازرع لى شجرة تمر حنة . . لأننى أحب التمر حنه ، وربما جئت اليها ذات مساء بارد لأغفو قليلا فى يوم متعب فيه . . لا تنس شجرة التمر حنة . هم سيد أن يتكلم ، لكنه لم يتكلم . أشار الرجل بيد واثقة :

ـ لا تتكلم يا سيد . . ولا تخبىء حلمك فى كمك . .

خذ هذه الحبال .

وحيث مد يده أتى بلفة من الحبال ، وقال :

ـ لعلك تحتاجها فى يوم لا أحبه أنا .

رجع خطوة للوراء . . ثم نط إلى بغلته ، دارت البغلة حول نفسها ، ومدت حافر رجلها اليمنى فى النهر . وسقطت حبة توت فوق رأس سيد فانشقت وبلل عصيرها رأسه وجبهته ، ولحظة مسح جبهته بظهر يده فاته أن يرى أين ذهب راكب البغلة ببغلته ، جرى حتى النهر ، بص وحملق فلم ير شيئا . واتته فكرة ، فأخذ يرمى النهر بالحصى ، يرمى بعنف ، لم يخرج أحد . تنهد ، وقال

لنفسه :

ـ هى الغفوة

وحين هم بالمضى رأى بعينه لفة الحبال مكومة على الأرض . . انحنى . . تلمسها شغوفا بيده هى ذاتها رابطة الحبال . أدرك . ألقى نظرة أخيرة على النهر ومضى على مهل ، ومرق فى الظلمة متحاشيا أن يخبط فى شىء ما ، يستشعره دائما أمامه ، وحين اقترب من قضبان قطار الدلتا ، سمع كحته . ولم يكن أمامه من خيار . إذ كان العفريت نائما بين القضيبين يكح ، ويكح بصوت عال ، تُنقل كل أخباره وكحاته من جد لجد لجدة ، وهو قابع يقطع ما بين المحلة والنهر . تقدم سيد بجرأة الخائف وتحدى الحالم ، وخطى من فوق الذى يكح ،

وأصبح فى البر الثانى . بر الضوء الشحيح .

صاح الديك ، وتململتْ ، وضوء النهار يتسلل من ثقوب النافذة الخشبية ، تململت « جميلة » مدت يدها على شباك السرير الحديدى ذى الأعمدة المحلاة بالنحاس الأصفر ، وشدت عصبة رأسها الزرقاء ، ربطت رأسها الموجوع . كانت تود لو نامت سبعة أيام تستريح فيها من حماتها العايقة ، ومتاعب الدار المزدحمة بالغمز والسباب والعيال والطبيخ ، ومواجهة الحما القاسى ، وأكل العنزتين وأكل الفراخ ، والتنظيف للأرانب . كانت لا تشاء الصحو ، غير أن رائحة زيت القرنفل نبهتها ورائحة الورد والمسك . تقلبت بسرعة ، وانحنت على زوجها الغارق فى عرقه والذى ظلت تدعكه من قبل الفجر حتى بعده بزيت البركة والورد والمسك ، وما يمكن أن

يكون مسه سوى برد من جراء جلسته على النهر فى ليل لا تمرح فيه غير العفاريت بهواء بارد فى ليل الصيف .

وضعت ظهر يدها على جبهته العرقانة ، ولم يتحرك « سيد » كان يبدو مستسلما لشىء قوى .

ـ آه منك يا سيد ومن رأسك . . ما الذى يأخذك منا يا سيد ؟

قامت بمهل ، ودلت قدميها بحذر حتى لا تدوس وهى تنزل من السرير على أحد من العيال . ينامون على المرتبة فوق الأرض وقد ارتمى كل منهم فى اتجاه ، بين محمد وعمر خطت ، وفتحت الباب ثم شدته بيد رؤ وف . فضحكت الأخرى ، الواقفة فى مواجهة الباب وهى تضع على الدرابزين فروة الخروف الصوف اللامعة والنظيفة ، فقالت لها جميلة التى تحاول دائما قطع حبال الخناق :

ـ صباح الخير يا حاجة .

فارتفعت ضحكة الحاجة عالية ، وقالت ساخرة :

ـ صباح الخير !! الفراخ ستموت من الجوع يا روحى ، وشخيرك يملأ الدار .

لم تلتفت جميلة ، ونزلت درجات السلم الطينى المبلط

ببلاط أحمر وأبيض . . ودرجات السلم عروس الدار ، تمسحها جميلة يوم الثلاثاء بعد انتهاء السوق ، ويوم الجمعة قبل صلاة الجمعة ، أمسكت بالدرابزين الخشب ونزلت بتبرم . بجوار الزير القابع فى الصالة الواسعة تجهز كل ليلة أكل الفراخ ، وبالأمس جهزته قبل أن يحدث البلاء . وعاء الذرة ووعاء قشر البطيخ ، ووعاء العيش المبلول وجرة الماء ، وبمهارتها المعهودة وضعت كل الأشياء فوق بعضها ، ونزلت للأرض ضاغطة على أصابع قدميها والفخذين وحملت الأشياء فوق رأسها ، ونهضت ، فخرجت سلفتها « خديجة » من باب مندرتها بقميص نومها الشفاف الأحمر الفاقع اللون ، ولم ترم تحية أو سلاماً ، إنما امتلأ وجهها الأبيض ببسمة أميرة مخدومة وخارجة توها من حضن رجل ، وتبخترت فى سكتها من المندرة حتى دورة المياه المدفونة تحت درجات السلم ببابها الخشبى العتيق ، ولا تعرف جميلة كيف شعرت حماتها بخروج سلفتها خديجة من باب مندرة ابنها فى صباح باكر كهذا ، وتدلت الحماه من أعلى الدرابزين ، ونزلت ضفيرتها الناعمتين وقالت فى سعادة :

ـ صباح النور على البنور يا خديجة . .

كيف قضيت ليلك يا ابنة الأمراء ؟

فطرقعت خديجة ضحكة ، وقالت :

ـ صباح الفل يا ستى . . ليلة عسل

إن شاء الله . .

ونظرت لثدييها العاريين ، ودخلت دورة المياه ، فانتشرت رائحة صنان ، برائحة الصابون المعطر ، الذى اغتسل به « كامل » زوجها منذ ساعة . بينما صعدت جميلة للسطح . وما أن رأتها الطيور حتى هجمت عليها طالبة طعامها ، وأفرغته جميلة كيفما اتفق ، وجلست على كومة القش المندى ، وأسندت رأسها على بطن كفها ساندة بكوعها على ركبة رجلها ، وفرت منها الدمعة ، وكانت زعلانة من أجل سيد . وتذكرت ليلة الأمس حين رجع مذهولا ، وهتف بها :

ـ دثريني يا جميلة .

ولفته فى الحمل ، فارتعش ، وأعطت له اليانسون ، اصطكت أسنانه ، فقال لها :

ـ هاتى الكتاب .

وأشار على الكوة فى الحائط والتى رص عليها كتبة بعناية وحب .

قال لها وهو يشير باصبع يرتجف :

ـ الكتاب ذو الغلاف الأحمر . فشدته ، ففتحه وهو يرتعش ، أشار عليها :

ـ أوقيتان من زيت البركة ، وأوقية ونصف زيت قرنفل ، وثلاثة دراهم ورد . وثلاثة دراهم مسك .

ووقع منه الكتاب ، وسقط فى عرقه .

شدت الصندوق الخشبى من تحت السرير ، وأخرجت العلب الصفيح الأسطوانية الشكل الطويلة ، وهى عرفت أنواع الزيوت ، وضعت له ما وصفه ، ودهنته ، ودعكته من قبل الفجر حتى بعده ، فرمشت عيناه ، وطبطبت على صدره .

ـ ماذا يا سيد ؟

قال بعد لأى :

ـ خرج لى من البحر على بغلة مبلولة بالماء . . وقال ابن البيت .

بسملت ، ومسحت عرقه .

وبكت على السطح وهى تسأل نفسها :

ـ كيف سنعيش فى الخلاء مع العفاريت والكلاب . . .

وكيف نهجر أهلنا ! !

ومن السور الخشبى الذى يحيط بالسطح أطلت على المقابر ، وحاولت كما تحاول كل مرة أن تعثر بعينيها على قبر أخيها الذى مات شابا أثر تسمم جرحه من مسمار ، لم تستطع . وعاودها البكاء ، وتمخطت فى ذيل طرحتها ، وأحست بالوجع فى رأسها ، وقامت لتدخل العشة لتجمع البيض مثل كل صباح ، مرقت من بين الدجاج والبط والأوز والديك الرومى ودخلت العشة ، وانحنت على فرشة القش ، وهمت أن تضع يديها بحنو لجمع البيض ، غير أنها رأته بعينين مدورتين لامعتين وجسم يلمع كالخرز ، فى هرولتها للخلف ارتطمت بالباب ، كان الثعبان قد رقد حول البيض ، ورفع رأسه فى مواجهة جميلة التى وقف شعر رأسها ، ثم جرت هلعة ترتطم بكل شىء ، وحين أصبحت فى صالة الطابق الثانى زعقت بالصوت :

ـ الحقونى . .

وجرت إلى باب مندرتها ، وهزته وهى فزعة :

ـ قم يا سيد . . ثعبان يا سيد .

نط سيد من سريره وعرقه ، سأل :

ـ أين ؟

هرول الجميع من حجراتهم ، الأب والأم ، والابن وزوجه هرولت بلحمها العريان ، والعيال والبنت الصغرى والبنت الكبرى التى فاتها قطار الزواج ، لم يفعلوا سوى الهرج والبسؤال ، وعندما قالت لهم ثعبان ، لم يتحرك أحد ، قال كامل :

ـ أين سيد ؟

فخرج ينشف عرقه ، وهدأهم بيدين واثقتين ، وقال لهم :

ـ اصمتوا . . وليذهب كل لمندرته .

وجلس على أولى درجات السلم ، ومسح وجهه الأسمر بيدين دافئتين ، وقال لجميلة :

ـ هاتى ابريق الماء يا جميلة .

وتوضأ ، وصلى ، وعطر نفسه بالمسك وقال لها :

ـ خليك بالمندرة مع العيال أنا طالع .

وطلع بتؤدة ، وكان يتلو ، ويده تزحف على داربزين السلم الخشبى الذى يهتز كلما اقترب من السطح ، حتى اختفى عن عيونهم التى تكوّمَت فى ركن من الصالة ، ولحظة بعد أخرى تسحب كل واحد منهم إلى مندرته ، ولم يبق سوى الأب الذى تلفت حواليه ثم نزل بسرعة إلى تحت ، ثم إلى خارج الدار . وظلت جميلة وحدها ، تسحبت ببطء وجلست على درجة فى وسط السلم تماما ، كانت تود لو تسمع سيد ؛ ماذا يفعل الآن فى عشة الفراخ المصنوعة من البوص والطين ومع ثعبان يلتف حول البيض !! وحين خطر لها الموت دق قلبها بعنف ، وخاطبت نفسها بأن سيد يلح فى أيامه الأخيرة على الرحيل ، وما أمنيته فى بيت بعيد سوى حلم بالرحيل ، خبطت على صدرها :

ـ يا خرابى ياسيد . . ولحمك الطرى ستتركه لمن يا سيد .

نهضت واقفه ، وأمسكت الدرابزين بيدين عصبيتين ، وتعلقت عيناها بالسطح ، قالت فى نفسها . . ليظل الثعبان مائة سنة ليأكل الفراخ والبط والماعز . . ولينزل حتى ليأكلهم .

نادت فجأة :

- سيد .

نظرت حولها ، هاهم وقد هربوا ، ولم يكلف واحد منهم نفسه بأن ينتظر الرجل المحبوس مع الثعبان ، كادت تنادى يا سيد . ولم تفعل . هو الذى يكلم الحيوان والطير . لا تنسى . . لا تنسى أبدا ليلة سمعته يتكلم بصوت عال داخل المندرة ، وعندما فاجأته بفتح الباب قفز قط أسود إلى حيث لا تعرف ، وكان سيد عرقان عرقان ، وعرقان رأته نازلا على درجة السلم ، صدره يرتفع ويهبط ، على وشك اللهاث ، أمسك جبهته بيده اليمنى ، وأشار لها باليسرى :

ـ يا جميلة

هرولت إليه ، واهتز الدرابزين ، واتكأ على كتفها ، همست لنفسها وفى أذنه :

ـ مالك يا خويا

ونزل كعجوز ، وحين دخل المندرة ارتمى على الفراش ، وبلع ريقه ، وقال :

ـ لمى البيض يا جميلة . . لقد مضى الثعبان لحال سبيله .

وكانت علية تنام على ظهرها ومؤخرتها عريانة وتمص فى اصبع قدمها الصغيرة ، وكان محمد الطفل الأكبر منها يعافر فى شد حلة الطبيخ المركونة تحت السرير . نظرت جميلة بحب ودهشة لزوجها ، لهذا الرجل الذى لا تعرف سره ، وحاولت أن تفك لغز حياته ، وما استطاعت ، وكانت تسأله وتلف وتدور ، هل حقا تكلمت مع قطة سوداء يا سيد ؟ وهل حقا سمع الثعبان كلامك ومضى ؟

فرحت لخاطرة سريعة ، وقالت بصوت فرح :

ــ وحياة النبى سأطلع وألم البيض .

وجاهدت الخوف كثيرا ، لكنها تريد أن تفرح بزوجها ، فضربت باب العشة بقدمها الحافية ، وكان النور يفرش العشة والدفء أيضا . ونزلت وفى حجرها البيض ، وابتسمت لسيد ، وفرحت فرحا خائفا ، ولكن قلبها المخطوف على زوجها هدأ ، وقالت :

ــ أتفطر .

وهو يشرب الشاى أخذ علية فى حجره ، وأخذ يلعب بأصابعه فى رأسها الطرى ، وقال محدثا جميلة وعلية ومحمد

ونفسه :

ـ سآخذ الثلاث جنيهات وأذهب للحاج

درينى صاحب شادر الخشب .

عضت جميلة على نواجذها ـ مرة أخرى يا سيد . الذى فى رأسك فى رأسك . تنهدت واستمعت وهو يقول كحالم :

ـ ثلاث جنيهات يا حاج درينى . . سيفرح الحاج درينى . . ويضعهم فى جيب جلبابه . . أعطنى ما أريد يا حاج . . خشب قديم وخشب جديد وعروق خشب .

ضحك الحاج درينى ، وقال بصوته الزاعق دائما :

ـ كل هذا الخشب . . ماذا ستفعل يا ولد يا سيد ؟

قال سيد :

ـ بيت . . بيت يا حج درينى .

جلس الحاج درينى على كرسيه ، وقال :

ـ لأجل خاطر والدك سأعطيك الخشب .

وكان الحمار يشد العربة بصعوبة ، الحمل ثقيل ، وحمار « زينهم » أضعف من زينهم نفسه ، الذى كان ينط ويقفز عن يمين الحمار وعن شماله ، يشد بود تارة ، وتارة

بعنفه ، وحاول معه سيد أن يشد الحمار بقدر استطاعته ، وعند المنحدر أخذت العربة سرعة مختلفة ، سريعة وسهلة وميسرة ، وابتسم زينهم سائلاً سيد :

ــ وما الذى رماك على النهر ؟

ضحك سيد ، وقال :

ــ بكره تعرف يا زينهم . . أنت شريكى منذ الآن فى بناء البيت .

قهقه زينهم وقال :

ــ يا بركة دعاء الوالدين .

وبعد أن انتهى المنحدر ، عاد مرة أخرى وضرب الحمار بعنف . وفجأة وقف الحمار تماما أمام قضبان قطار الدلتا . ولم يفلح الضرب ولا الزعيق . . وعرق « زينهم » بل ولهث ، واقترب من أذن الحمار ، وقال برجاء :

ــ مالك اعمل لنا معروف ــ خطوات ونصل .

ولكن عبثا حاول مع الحمار . فخلع سيد جلبابه ، وخلع زينهم جلبابه ، ورميا بالجلبابين على عريش العربة وظلا ينقلان فى الخشب من عند قبل آذان الظهر حتى آذان المغرب ، ينقلان الخشب من عند قضبان قطار الدلتا حتى شاطىء النهر ، ولما تعب زينهم ، قال سيد وهو يغالب

تعبه بالضحك :

ـ إنه ذنب حمارك .

وعندما رأى « زينهم » الشمس تختنق باحمرارها وتذوب بين السحب ، لطم كالنساء وقال :

ـ يا خراب . . كيف سأرجع ، والعفريت ينام بين القضبان يكح .

ضحك سيد ، وأمسكه من كوع يده اليسرى ، وجره بجواره وهو يقول :

ـ كن شجاعا . . لا تخف . . أنا معك . .

وما أن عبرا القضبان حتى قفز إلى العربة ، ونط سيد بجواره وأمسك سيد بلجام الحمار ولسعه بكرباج على ظهره ، وفجأة احمرت عينا الحمار وجرى مثل الرهوان ، وقرقعت العجلات فى الأرض غير المستوية ، وما أن صعدا المنحدر حتى قفز سيد من فوق العربة التى لا يتوقف حمارها واتجه إلى داره . بينما الحمار يجرى بزينهم حتى دارهما . وارتمى زينهم على عتبة داره وهو يحلف بأن سيد يخاوى العفاريت ، وسيبنى له بيتا ليسكن معهم ، وقال للذين تجمعوا حوله على عتبات الدور ، وهو يقسم بين

حين وآخر :

ـ نزل للعفريت الذى ينام بين القضبان وكلمه فى أذنه ، فجرى العفريت وقال مُر يا زينهم . . فجرى حمارى كأنه حصان .

فيما كان سيد يربت على ظهر جميلة قائلا :

ـ هى الخطوة الأولىٰ يا جميلة . .

. . البيت . . البيت الذى سيضمنا بحنان . . ويدافع عن أولادى من شر الأشرار وخبث الخبثاء ، ويلمهم بين نهر وسماء . .

ياجميلة . . .

كانت قد نامت ، وأخبرته فى الصباح أنها رأته أيضا على النهر ، وأنها رأت شجرت التمر حنة وفوقها رجلا ضخما نائما على جنبه ، ومن فمه تطلع رائحة القرنفل .

لم يصدق نفسه ، هذا هو الخشب ، وهذا هو النهر والخلاء يفتح ذراعيه ليس سوى أفق وسماء وطيور وخضرة مع الأزرق تحط فى القلب راحة ، حقق حلمك يا سيد ، وقبل الأرض التى تحملك بفرح ، الأمان ، المكان الذى راحت لياليك فى تصوره . يرمون ماء الجوزة فى الشوارع ، يرمون ماء الصباغة فى الحارات . والشمس هنا . مسح على شعر رأسه شديده السمرة ، حيث ترك طربوشه فى علبته الصفيح تحت السرير مع صندوق كرتون للأحذية ، مسح عرق جبنيه ، وكان زينهم واقفا فرحا بالشمس وبحماره الذى يبرطع فى الخلاء الحمار يجرى ويجرى ويعود ، يأكل ويأكل ويتمرغ . ضحك زينهم وخلع طاقيته ونفضها على يده اليسرى ، وقال لسيد :

ـ هل ترى سعادة الحمار ؟

وقفز فى ذهنه سؤال ألقاه فوراً :

ـ أكل هذا سيكون لك يا سيد ؟

بينما علية تشده من ذيل الجلباب وصوتها فى الخلاء أغنية لا يفهمها أحد . قال سيد مشيرا لأولاده :

ـ لهم .

وجميلة تقلب فى راكية النار ، انزاحت العصبة عن رأسها فبدت جميلة حقا وبدت عيناها أوسع ما تكون . فلبت فى راكية النار ، وجهزت كل شىء للشاى ، وكانت بين حين وآخر تعطى محمدا بيضة أو بيضتين ليبتلعها ، ويجرى متعثرا . يحب سيد رائحة دخان الخبيز ودخان راكية النار ، بل كان يرقب بين لحظة وأخرى النار فى توهجها وخبوها ، يحزن حين تنطفىء النار . قال ذلك ذات مرة ، وقال إنه لا يحب القطار حين يقف ، وبكى ليالىَ من أجل الأخت العانس ، بل إنه يبكى على شقيق جميلة وهو الذى مات قبل أن يعرف جميلة ، ولما بكى ذات ليلة والدنيا غارقة فى مطر طوبة وسألته لماذا تبكى على أخى إسماعيل الذى لا تعرفه ؟ نشج وقال : شبابه . . شبابه يا جميله .

أخذ كوب الشاى ، وأخذ زينهم كوبه ، ووضعت جميلة كوب شايها المر بجوار ذيل جلبابها ، ومحمد يجرى عبثا وراء « أبو غزالة » الحشرة الرقيقة اللطيفة التى تراوغه وتهرب ، وترك سيد زينهم ، وجرى مع محمد وراء « أبو غزالة » ، وأشار لابنه بالصمت ، حط أبو غزالة فوق عريش عربة زينهم ، تقدم سيد ببطء وحذر ثم مد أصبعيه بثقة وأطبق على « أبو غزالة » الذى التمعت ألوانه فى الشمس وأعطاه لمحمد كهدية . وأحس بالارتياح ، وقال لجميلة :

ـ قابلت أبو سعده على المقهى أمس ، وأخبرته بالأرض الجديدة . . ضحك ولم يصدق .

وقال فى نفسه : سيصدق حين يرى . .

ومسح الفضاء بعينيه القويتين ، فرأى الحدآت والأغربة ، وهدهد ينط للأرض ثم للشجرة ، ثم اتجه لشجرة التوت ، ونادى على زينهم قائلا :

ـ يا زينهم . . هات المنشار ، والشاكوش والمسامير . .

لقد فرغنا من الشاى . . وأنت يا جميلة اجلسى تحت الظل ولمى علية ومحمد فى حضنك .

ثم خلع جلبابه وناوله لجميلة التى خفق قلبها لسبب تجهله ، وبملابسه الداخلية ـ الفانلة ذات النصف كم ، والسروال الكبير ـ ، وقف تأمل النهر طويلا ، مد ذراعيه نحو السماء فاردا أصابعه العشرة ، وأحس الشمس تدخل فى أظفاره وتحت جلده ، شعر بالدفء . . أحس أنه يصرخ بقوة ومن الأعماق ، غير أن زقزقة العصافير كانت أعلى ، وأشد صخبا من نفسه التى اختلط بها الفرح بالتوتر ، انحنى وأخذ قطع خشب . . سار خطوات وهو يعد ٢٠ ـ ٣٠ ـ ٤٠ ـ ٥٠ ـ ٦٠ . وقف . . بالخشبة بدأ يرسم خطا ، يلاحظه وهو يخط فى الأرض ببهجة ، همس لنفسه :

ـ هذه حدودى .

ورجع مبتدئاً بالعرض وجرى بالخشبة راسما حدوده الأخرى ، قفز ضفدع أمامه ، وداس خنفسة ، وقفل المربع . رفع رأسه ، سأل جميله التى تهم بصنع الشاى :

ـ هنا يا جميلة .

قالت وهى لا تعرف :

ـ ما تراه يا سيد .

وفى كل ركن من الأركان الأربعة دق وتدا من خشب ، وكانت الدقات عالية ، وذات صدى عال ، كأنما تحت خبطاته كانت ترتج المحله زعق :

ـ زينهم . . هل رأيت البيت يا زينهم ؟

غمرته فرحة مجنونة ، وتزاحمت فى رأسه الصور ، رأى البيت وقد أصبح كبيرا عاليا ، بل رآه بنوافذ متعددة . . قصرا . . رآه قصرا من قصور ألف ليلة ، تلعب فيه الألوان الحمراء والزرقاء والبنفسجية ، وتختلط جميعا ويخرج منها ديكٌ يصيح على الأولاد أن تلعب فى العشب وتشم الهواء الحقيقى . . بل ورأى العيال وقد كبروا . . وعلية تقف بشعرها الطويل فى نافذة على النهر ينط إليها السمك وتحط على رأسها العصافير . أولاده . . أصبحوا كثيرين لا يعرف عددهم . . لعلهم كل العيال الذين يلعبون فى الوراقة وبجوار سيدى الغمرى . . لعلهم يخرجون من بطن الأرض . محمد يركب المراكب ويخرج من النهر إلى البحر . البيت يعطيك قوة الحياة ، مهما مرضت أو تألمت ، فالبيت يلمك ، يحضنك بين دفء أنفاس أولادك ، لا يطردك أحد ، لا تبحث كالغريب عن حجرة ، يعرف أصحابا له ناموا فى الحمام العمومى .

يخاف . . لا يا علية سيكون لك حجرة ، ولمحمد حجرة ، ولنا حديقة بها اليانسون والكمون والدفلى . . آه . . كنت سأنسى وشجرة التمر حنة ، التمر حنة أيها الصياد . . سأنتظرك كل ليلة ربما تأتى . . حين تتعب ويهدك مشوار حياتك لن تجد سوى تمر حنتى ، مثلما لا يجد المرء حين يجوع أو يمرض سوى بيته .

ودق أول عرق خشب . . ثم دق بعنف ، ذراعه العفى لا يتوقف لحظة ، وقد انتفضت منه العروق وانهمر العرق فى عينيه ، وزينهم يناوله الخشب والمسامير . . حتى انتصف النهار ، وبدت قطعة الأرض غابة صغيرة من الخشب لا يفهم شكلها أو معناها سوى سيد . وأخرجت جميلة الحلة النحاسية الكبيرة من جلباب قديم ، والحلة مملوءة بالمحشى الذى أعدته بعد عشاء الليلة السابقة فى جنح ظلمة حجرتهم حتى لا يتقول أحد ، حين سمعوا عن شراء الخشب ضحك أخوه وضحك أبوه ، وقالت أمه ساخرة :

هذه الدار أحسن من غيرها

بينما خديجة أكلت الغيرة قلبها ، وعندما ضمها الغطاء مع زوجها همست :

خوفى أن يبنى سيد بيتا حقا .

سخر كامل قائلا :

يـا عبيطة . . ليتـه يفعـل ، ونـأخـذ نحن المنـدرة الثانية .

وقال سيد لنفسه ، وكانت زوجته تلف الأرز فى ورق الكرنب :

حين أخرج لن أطلب ضلفة باب واحدة .

زعق :

ــ يا زينهم . . الباب يا زينهم .

جرت جميلة ومع زينهم وسيد حملت الباب القـديم الذى باعه لهم المعلم درينى بجنيهين كاملين مستغلا رغبة سيـد الملحـة . وُضـع البـاب فى الـوسط أمـام الشـرق مباشرة ، وقال سيد :

ــ من هنا تطلع الشمس ، فتغمـر الشمس الباب والبيت . . ونجلس أمـام البـاب فى الصبـح ونتمتـع بدفئها . . ويمكنك يا جميلة أن تربى الكتاكيت التى تجرى فى الشمس أسبوعا فتصير دجاجا . . وعلى النهر سيكون الشباك . . أليس كذلك ؟

غير أن جميلة راحت فى خوف مبهم ، ونشف ريقها ، وهزت رأسها ، ورجعت للظل واحتضنت عليه طويلا ، وكيف تكون الحياة فى الخلاء . كانت تنزل من فوق السطح ، وتخرج من الحارة السد ، وتكون المقابر على يمينها والبيوت على شمالها ، وعند جامع الغمرى تجلس نسوة السوق بالخضر والفاكهة والبيض والجبن ، وحتى زوجة سلفها ــ كانت تجلس بالطست تبيع كرش الخراف والطحال والكبد ، وكانت ترى الناس فى المقهى ، وتمر على « كوع النبى » الذى ينور جدار المقابر ، وتملس عليه ، تمسه برفق ، وتقبله وتطلب الصحة لزوجها وتدعو الله أن يكف إخوته عن التحرش بها ، وتطلب اتقاء شرهم . . وهنا . . ستخرج من البيت إلى . . إلى خلاء ! ! وقضبان سكة حديد قطار الدلتا . فزعت ، يقولون إن العفريت ينام بين القضيبين ويكح ويكح . وبينما ترفع عينيها من الأرض لتخرج من كآبة مباغتة ، رأته بهيئته الكبيرة وبياض وجهه الذى يحمر من الشمس ، هتفت بصوت سمعه سيد :

ــ يا خرابى .

نظر سيد إلى اتجاه محدد فوجده ، واقفا بجلبابه الأبيض من لون اللبن ، ورأى وجهه الأبيض المحمر

وشاربه الذهبى اللون . انتابه فرح . من ثلاثة شهور لم يره . جرى إليه ، وفتح له ذراعيه ، هاتفا :

ـ خالى !

اتجه إليه الخال بخطى سريعة ، وضمه بحنو بالغ ، قال سيد :

ـ كيف أنت يا خالى . . وكيف عرفت ، ولماذا جئت الآن ؟

ضحك الخال ، مد شاربه ، وربت على كتف سيد ، وتقدم إلى المكان الذى تطلع من أرضه ألواح وعروق خشبية ، بص حوله للخلاء والفضاء والسماء .

قال :

ـ كيف حالك يا جميلة . . يا غالية

مر بزينهم ، مرت يده على كفل الحمار .

ـ سلامات يا زينهم .

لم ينظر لسيد . بل بحلق فى الأخشاب .

ـ هذا هو البيت . . باركك الله . . وجعله مباركا لك . .

سكت الخال طويلا . وكان سيد مشدودا إليه ، يتفهم كل لفظ يخرج من فمه ، قال الخال :

ـ أعرف أمنيتك يا سيد .

لف الخال المكان بعينه . البرَاح . . الحرية . . للحظة حسد سيد ، فشده من ذراعه ، وأشار له برأسه . وهو يقول :

ـ تعال نمشى قليلا .

بينما راح زينهم يخبط ويدق بجدية ، والحمار لا يكف عن التهام العشب . نظرت جميلة إلى الخال بنظرة حانية هى التى تهفو إلى رؤيته كل يوم وهى التى ترجوه ألا يذهب لأخته الشتامة ، حماتها التى لا يعرفها سواها ، ما أن تتذكر أخيها الدسوقى حتى تشتمه :

نجس الذيل

ويزعق أبو سيد عشرات المرات :

ـ الدسوقى حرامى . . الدسوقى لا يدخل بيتى .

وحماتها كلما تذكرته تندب حظها ، وتسأل :

ـ أين داره وبيته ؟

والدسوقى يلبد بجوار مسجد الغمرى مترقبا

« سيد » أو « جميلة » . هما أهله الذى يسافر ويسافر ويحط عليهما كى يسافر ، له حقيبة سوداء صغيرة هى كل متاعه ، لكن ما أن يفتحها حتى تطلع منها الجواهر والخواتم الذهب والفلوس الورقية الكبيرة ، وما أن يجلس معه بالمقهى حتى يحدثه عن موانىء بعيدة ، ومراكب مسافرات ، ومدن واسعة ، ويحدثه باللسان الإنجليزى ، واللسان الفرنساوى .

طبطب على ظهر سيد ، والقش وفروع الشجر الصغير تطقطق تحت أرجلهما وأشجار الصفصاف قائمة كالعفاريت ، مشدودة وسارحة للسماء ، وكاد سيد يرى كل العصافير المختبئة بها . قال الخال :

ـ أتهرب من أبيك . . أم من المحلة ؟

قال سيد :

ـ لا أهرب يا خالى .

ثم وقف وأردف :

ـ انظر إلى هذا المكان جيدا . . خلاء . . أليس كذلك . . ولكن بعد عشر سنوات سيتغير . . شغل خيالك يا خالى . . هنا سيكون شارعان كبيران بينهما

حديقة واسعة . . هكذا تكون المدن الكبيرة ، فى أفلام عبد الوهاب للشوارع اتجاهان ، والحدائق مزهرة طول العام . . انظر يا خالى هذا سيكون دوران فى قلبه العسكرى ينظم المرور . . وربما يكون أمامه نافورة مياه عالية ، ولابد أن مياه النافورة ستكون ملونةً ، مياه زرقاء وحمراء وخضراء . . حين يطل أولادى من الشرفات والنوافذ يستمتعون بالحياة ، ولابد أن المحلة ستصبح مدينة كبيرة . . وسيكون بها دار سينما تعرض أفلام عبد الوهاب وأم كلثوم . . أم أننا سنظل نسافر بالقطار لنرى الأفلام . . وأظن يا خالى أنه يمكن أن يتوسط الميدان كشك يضعون به مذياعا كبيرا ليستمتع كل الناس بالأغنيات ، ويعرفون أخبار الحروب .

وسكت سيد ، بعد أن وضع أمام خاله خريطة حلمه . نظر الخال مليا فى ابن أخته التى لا تحبه ، واستغرب ، ولكنه يعرف أن « سيدا » يشغل نفسه بمجلات وكتب وأفلام ليس من ورائها طائل ، ولأنه ولد طيب وهادىء وحكيم فإنه يتناسى كل تفاهاته تلك .

وقفا على جسر من جذوع الشجر طويل وضيق يربط بين ضفتى النهر صنعه الفلاحون من سنوات بعيدة ، سأل

الخال :

ـ وماذا أيضا ؟

قال سيد وقد شطح عقله :

ـ هذا الجسر مثلا . . سيكون مثل كوبرى قصر النيل . . ضخم وكبير وحديد ، ويمشى عليه المحبون والعشاق وتتمنى شهر زاد لو أن قدميها وطأته ذات ليلة .

ضحك الخال أخيرا وضحك ، وسكت فجأة ، وقال :

ـ أنا راجع من بورسعيد ، وقمت بعملية فى الإسماعيلية . . خواجه وبنك . . لا عليك . . سيد . . معى مائة جنيه . . وأريدك أن تحفظها معك حتى أطلبها . .

سكت . . هرش رأسه ، وقال :

ـ وإذا احتجتها . . خذها .

رفع سيد عينيه بألم ، بص فى عينى خاله الزرقاوين ، وتمتم :

ـ مرة أخرى !

أشعل الخال سيجارته ، وقال :

ــ وليست الأخيرة . . أنا أسرق منهم لــ . .

قاطعه سيد :

ــ أعرف . . لتوزعها على فقراء سيدى الغمرى وسيدى المتولى . . الفقراء أنفسهم يعرفون أنك تسرق . . وتعطيهم . . غير . . أن . . هذا . . فى حد ذاته . . .

قال الخال بهدوء ، وبدون انفعال :

ــ اخرس يا سيد .

سكت سيد . وسكت الخال

وعادا محملين بالكلام الذى لم يُقل ، يجمعهما حب بالغ ، ويمنعهما رأى فى الأخلاق وأم وأب ، وجموح الأبيض الأزرق العينين الذى لا يحط فى مكان . . وتُقطع المسافات البعيدة من بلاد لبلاد حتى يعودا لبعضهما . . يرجع الخال . . فيرمى الفلوس الذهب فى حجر سيد عندما ينقطع دبيب الأرجل فى المقابر . . وكم سمع من حواديت حول هذه الفلوس . . إنها فلوس الإنجليز والبكوات . . وأن الخال يفعل هذا بمهارة فائقة . . وسمع

عن بحث البوليس عنه، بوليس القطر كله ، ما عدا بوليس المحلة ، وسيد لا يرتجف ولا يخاف ، غير أن ما يؤلمه أن يكون خاله حقا حرامى !

وحين اقتربا من شجرة التوت ، أعطى الخال ظهره لاتجاه جميلة وزينهم ، وأخرج الفلوس الملفوفة بقطعة قماش ، وقال لسيد بثقة :

ـ خذ يا سيد . .

فأخذ سيد بيد قوية ، مؤكدا العهد الخفى بينهما ، ودس الفلوس فى جيب الصديرى الداخلى ، واندفع الخال بسرور باتجاه جميلة وقال :

ـ متى سنأكل يا جميلة ؟

اتسع وجهها بابتسامة ودود ، قالت :

ـ حالاً .

وعلى الفور ، رص زينهم ما فى يده ، وجرى إلى دلو الماء وغسل يديه ، ولطم وجهه بالماء ، وطوح بطاقيته فوق العربة .. وجلسوا حول « المحشى » يستشعرون حرارة الشمس ، وحلاوة الأكل ، وقلق الأرض الواسعة ، وحين أتتهم صرخة محمد العالية نهضوا فى فزع ، وعفر

التراب المحشى والشاى ، وكان الولد يصرخ بألم بعد أن ركله الحمار برجله الخلفية فى جبهته التى تورمت فى الحال ، وكانت الدموع تنزل ، والمخاط واللعاب ، بل وبال على نفسه أيضا ، وكانت جميلة تضرب على صدرها :

ـ عين وأصابت . . ملعون حمار زينهم .

والسيد لم يحزن كثيرا ، وسمع الخال صفارة قطار الدلتا تأتى من بعيد بفرح .

ـ ٤ ـ

انتفض القلب من سيد فرحا ، كظم فرحته ، فعض أصبعه . بيت ونهر . جلس كأنما هوى على الأرض . فجرت إليه جميلة « وأبو سعدة » . قالت جميلة بلهفة :

ـ ما بك يا سيد .

وقال أبو سعدة مازحا معه :

ـ تدعونى لأرى البيت ، وتسقط منى .

ورأى وجه « أبى سعده » الممتلىء ، الأسمر من لوحة شمس الغيطان ، يدرك سيد طيبة الفلاح الأسمر ، حاول سيد الابتسام ، وأشار له :

ـ انظر . . البيت .

ضحك أبو سعدة ، وشال سيد من تحت إبطيه ،

فوقف سيد كالحصان ، وقال أبو سعده :

ـ ماذا يا سيد . . ؟ الفرحة لا تأخذ الرجال .

فقال سيد مؤكدا لنفسه :

ـ انظر يا أبا سعدة . . بيت .

لف أبو سعدة حول البيت . كأنه بيت من الخشب ، غير أن سيد كساه بالطين المدهوك بالتبن ، تقدم من الجدار وهزه بيديه بقوة ، فضحك سيد من بعيد .

ـ تظنه سيقع . . يا رجل .

طالع أبو سعدة الشبابيك التى أخذت رونقها والباب الكبير كأنه باب عمارة .

دخلوا البيت ، فى اللحظة التى يصمتون فيها ، كأنما العالم سكت سكوتا أبديا غير زقزقة تخترق الآذان . دار أبو سعده فى الحجرات الثلاث ، ثم جلسوا بالحجرة التى تطل على النهر . . قال أبو سعدة :

ـ عملت حسابا لكل شىء ، الشبابيك ، والحديقة . . ولم تخصص « اصطبل » أو زريبة للبهائم .

ابتسم سيد ، ولم يرد عليه . أبو سعدة لا يحلم سوى

بالبهائم والزرع والحصد ، ويااليت هذا دام طول العمر . ابتسم . أبو سعدة يسمع المذياع فى مقهى « البليهى » وهو على شفا الجنون ، ويخبط على المنضدة الرخام :

كيف يتكلم الحديد ؟

وسيد لا يحلم بالزرع ولا بالبهائم ، يحلم سيد برسوم ملونة وسينما تحكى حواديت ألف ليلة وليلة ، ويشترى كتب عنترة ، وألف ليلة وليلة يلونها كابدع ما يكون . قال سيد :

ــ يا أبا سعدة هنا سترمح السيارات كالخيل ، فى اتجاهين ، وشوارع نظيفة .

من أعلىٰ هوت طيور ولمست بمناقيرها النهر ، وكسهم صعدت للسماء ، قال :

ــ ياه يا أبا سعدة تعال نجلس على شط النهر .

وفى الحقيقة لم يكد قلب سيد ينط فرحا إلا بعد أن فرغ من ترتيب العفش داخل البيت ،.واشترط زينهم أن ينقل العفش من سرير ودولاب وكنبة بعربته وحماره فى وقت الضحى من بيت العائلة إلى بيت العفاريت على النهر . لم يتأخر أبو سعدة عن صديقه ، ربط البهيمتين

وجرى إليه ومعه ابنه محمـود ، وصعد الـرجال ليحملوا العفش حتى العربة ، كان سيد فرحان بالخروج ، متوترا قليلا ، وعلية ومحمد سعديْن بالهرج والورق الكثير الملقى عـلى الأرض ، والكـراكيب . جميلة هى التى بكت ، ومسحت أنفها فى طرحتها عشرات المرات ، وكانت بين الفينة والأخرى تقول لنفسها :

ـ يهون عليك يا سيد نترك مكاننا .

بينما سيد يهتم اهتماما خاصا بكتبه ، وأخذ يرصها بعناية ، تذكرة داود ، كليلة ودمنة ، ألف ليلة ، واعلان لفيلم الوردة البيضاء . وفى وقت قصير كان أبو سعدة وابنه محمود قد أنـزلا السريـر والدولاب والفـراش ، وزينهم وضع كل الحلل والصحون فى الطست النحاسى الكبير ونزل بهم ، وسمع ضحكة خليعة لخديجة يشوبها بعض غيظ . وسمع سيد صوت أبيه يقول بغضب :

ـ لن يدخل دارى مرة ثانية .

فيما قالت الأم لزوجها :

ـ البركة فى كامل . . البركة فى كامل .

زعق الأب ، وحذر :

ـ لن يأخذ دجاجة واحدة معه . . بيضة . . لن يأخذ بيضة .

والتف عيال الحارة يشاهدون لأول مرة رجلا يخرج من داره بـ وجته وأولادة وعفشه ، هم لا يرون سوى عفش العروس حين تأتى بالفراش الملون والدولاب ذى الضلفات والمرايا ، وكل الأشياء تكون جديدة حتى « المنخل » و « مخرطة » الملوخية ، وكانوا يتساءلون : كيف يخرج الإنسان من داره . ولما همت العربة أن تمشى بحملها من الأثاث والذكريات ، صرخت الأم بغيظ يشوبه الحزن الحقيقى على فراق ولدها :

ـ بصوا . . من يفوت داره ؟ . . راحل للعفاريت .

وقالت بعد أن فاض بها الكيل :

ـ القاسى الذى لا يرحم أمه .

تأثر سيد بجملتها الأخيرة ، غير أنه كان مستسلما لطريقه الذى أحبه ، فمضى دون أن يقول أنا ماشى ، أو السلام عليكم ، وهذا آلمه أيضا ، وهذا ما قاله فى ليال مختلفة بعد ذلك لجميلة .

جرى محمد لأبيه ، فرفعه بيديه ، وأجلسه على حافة

الشباك على حافة النهر ، وكانت رأس محمد قد شفيت من أثر ضربة الحمار . وضع أبو سعده كوب الشاى ، ونفض طاقيته بين يديه ، قال سيد :

ـ لا تنس إحضار الزرع الذى طلبت . . ولا تنسَ شجرة التمرحنة .

فى الشهور الأولى قضى « سيد » أيامه ولياليه كأنما يحقق بالضبط حلمه الذى بناه فى مخيلته ، يسعى وراء كل بهجة ، أتى صديق عمره بالزرع ، فزرع اليانسون والنعناع وشجرة الدفلى وشجرة التمرحنة ، مده أبو سعدة بالفأس والغلق والبذور ، و « هدية » زوجة « أبى سعدة » تمر على جميلة يوم السوق وتترك لها البطاطس والباذنجان والفلفل الأخضر والخيار ترميه فى حجرها وتشد طرحتها لتجرى حتى لا يؤذن العصر وهى ما زالت فى الخلاء . تضع ذيلها فى فمها وتهرع ، وهى تقول لجميلة :

ـ قبل أن تطلع العفاريت . . كان الله فى عونك .

وجميلة عشقت السهر بجوار الشباك ، تحط الظلمة القابعة فوق النهر هدوءًا بصدرها ، وتستيقظ فى الضبح الباكر لتكنس البيت وأمام البيت وحوله وينزل سيد للنهر بالدلو ليملأه ويطلع يرش أمام البيت وحوله ويسقى

الزرع ، وفى الليل يتمدد على شاطىء النهر يسمع نقيق الضفدع ، وكان ينتظر كل ليلة انتظارا يعرفه ، ويسأل نفسه :

لماذا لم يأت ؟

لابد أنه لم يتعب بعد .

ويخرج بين زروعه ، ويقف أمام التمر حنة يمسحها بعينيه ، ويسألها بشفاه ترتجف :

ألم يأت يا شجرة ؟

هذا الذى خرج علىّ ذات يوم ببغلته .

وكان يحذر العيال خاصة عمر من الاقتراب من جسر الدلتا ، ويحذرهم من النهر ويحذرهم من الحشرات ويحذرهم من كلاب ضالة تطردها المدينة ، حينئذ تقول جميلة :

ــ ألم أحذرك أنا من كل هذا ؟

فيصمت ويضم « علية » فى حضنه ويهمس لها بالذى لا تفهمه :

ــ عالمان يا علية . . المقابر والحارات ، والنهر

والمكان الفسيح النقى . . عندما ستكبرين ستمشين جذلة فى شوارع ذات حدائق . . وتتعلمين فى الجامعة . . وتسافرين وترجعين لبيتك . . تخيلى يا علية أنك تمتلكين شيئا جميلا فى هذا العالم . . الطمأنينة . . لا تخافى اذهبى إلى بلاد الهند والسند . . واطلبى العلم ولو فى الصين . . ثم سترجعين فتجدين بيتك على هذا النهر .

تنام علية فى حجره بين رائحة العرق ورائحة النعناع .

وتملأ « جميلة » القلل وتغطيها بشبكة رقيقة يتدلى منها القواقع الصغيرة ، وتضعها على الشباك البحرى ، ومن بعيد تأتى خبطات وابور الطحين فقط تذكرها بما وراء الجسر .

مضت الشهور الأولى التى وقعت فى الصيف بجمال أخاذ . السهر على الحصيرة أمام البيت ، لا شىء سوى النهر والنجوم والنسمات التى خلقها الله نقية وطاهرة ودافئة ، وكان الصحاب يأتون إليه فى منتصف النهار معهم الدومينو فى علبته الخشبية ، ويلاعب « راشد » الشطرنج ، تقدم لهم جميلة الشاى ، ويدخنون السجائر ، يحكون حكايات المدينة ومعلمى النسيج ،

ويكون عليهم أن يرحلوا قبل المغيب ، قبل أن يكون عليهم أن يلتقوا بالعفريت النائم بين القضبان ، فيما يقهقه « سيد » ، ويقول لهم إنه سمعه بأذنيه اللتين سيأكلهما الدود يكح ، لكنه أيضا لا يصدق أن عفريتا يكرس حياته كلها للنوم بين قضيبين حتى يخيف أهالى المحلة . ولا يكف الحديث عن تفسير الأحلام ، والمذياع ، والحرب الكبرى ، وعنتر وعبلة ، وكانوا يسألونه بعض الصور الملونة ، أو لوحة كتب عليها آية من القرآن بخطه المدهش ، وكل ليلة قبل أن ينام ينحنى ليدخل تحت السرير ذى الأعمدة الحديدية ليطمئن هناك ، بجوار الحائط ، وفى صرة فوقها « الهاون » عن مائة جنيه خاله . وطلبت جميلة أن تنزل السوق لتشترى الدجاجات والبط ، فكيف يعيش الإنسان بدون أن يربى الدجاج والبط . وفى صباح يوم سوق أعطى لها الفلوس وقال لها :

ـ اشترى أرنبا وأرنبة . . أبيض لونهما ، وأحمر لون عيونهما .

وهى اشترت أيضا الفول والأذرة المدشوش ، والردة ، والباذنجان والبطيخ والبطاطا والخيار ، وفرح العيال ، وركنت جميلة كل هذه الأشياء فى مندرة العيال ، التى تطل نافذتها على الحديقة الصغيرة وعلى شجرة التمر

حنة . . فى ذلك اليوم بالذات أحست جميلة أن لها بيتاً ، وفرحت به ، وكنست ورشت الماء وهى التى ملأت الدلو من النهر مرة بعد أخرى لتسقى الزرع .

وذات ظهيرة جاءت السحب ، فكان بها فرح غامر ، السحب الرائعة التى تظلل برفق على الطيور والشجر والإنسان . . وترفق بالأرض لتكفيها شر حرارة الشمس . تطلع « سيد » إلى السحب وهى تأتى كالجمال والحيوانات الخرافية ، أحيانا تسرع ، وأحيانا تبطىء ، غير أنه رآها تتلاحم فى كثافة ما ، وأحس لسعه برد فى إبهام أصابعه ، فأخرج ساعته ذات السلسلة من جيب الصديرى ، وقال :

ــ ساعات يا جميلة . . ساعات ، ويرتدى العيال الملابس الثقيلة والأحذية والجوارب .

ورأى « الجدى » يجرى كالملسوع ، فضحك ، وقال :

ــ ها هو الجدى وقد صفرت الريح البعيدة فى أذنيه .

وفى الليلة التالية ما أن نفخت الأم فى أعلى المصباح الغازى لتطفئه حتى ازدادت سرعة الريح فى الخارج ،

وانصفق الباب ، فأغلق سيد الشباك ، ونادى العيال أن يجلسوا معهم ، أطل سيد من الشباك ، وقال :

ـ ستمطر الآن . . وبشدة .

وانهمر المطر . قلقت جميلة ، جرت نحو العنزة والجدى والطيور ، لكن سيد طمأنها :

ـ لا تقلقى . . إن السماء تذكر الفقراء بقدوم البرد والمطر .

لكن المطر لم يكف ، وعزل بيت سيد تماما . . البيت والنهر والغيطان ، والمحلة وبيوتها ومصنعها ، لا يستطيع أى بشر أن يعبر الآن قطار الدلتا . . أحس « سيد » أن البيت وحيد ، لكن لا بأس . . المطر سيجعل الحشائش تنمو والعشب يخضر وسوف يمهد طريقا من البيت حتى قضبان قطار الدلتا . لم حوله العيال ، وأشعلت الأم جميله وابور الجاز ليشع دفئا ، وحين حط الليل كاملا . . نام العيال ، وتمددت جميلة بجوار سيد مثل قطة مذعورة فى ذلك الشتاء الأول الذى مر على بيتهم .

نام الجميع . . حتى « سيد » غفا ، غير أنه فزع كالملسوع ، فقد سقطت نقطة ماء على جبهته . نقطة ماء

وحيدة هى التى سقطت ، لكنها مثل الفزع حطت على جبهته ، مثل السقوط ، جلس نصف جلسة ، أسند رأسه للحائط ، كانت جميلة نائمة كطفلة تكاد تبتسم . سمع صوت المطر الذى يرخ فى النهر ، أقنع نفسه بأن النهر فى استقباله للمطر يصنع هذا الضجيج . النهر يبالغ . ولكن نقطة المياه هذه . القطرة هذه من أين جاءت ؟ صنع السطح من الخشب ، تقاطعت عروق الخشب ، وتمددت الأشجار نائمة ، وفوق ذلك كمية ضخمة من عيدان الحطب والقش وعيدان الأذرة الناشفة ، والتراب أيضا ، فكيف اخترقت نقطة المياه كل هذا لتضربه فى جبهته بالذات ! بمهل وحذر مد يده الدافئة ليتحسس جبهة جميلة . لم يجد شيئا ، تحسس الوسادة . . بقية الفراش . . بل قام وتحسس المنضدة ووابور الجاز ، وجرى مذعورا للناحية الأخرى حيث الكتب مرصوصة فوق لوح خشب ، تحسس الكتب بيد متلهفة مرتجفة . . لا نقطة مياه واحدة . انحنى تحت السرير ، شد جوالا طرحه فوق الكتب ثم جلس فوقه ، نظر للسقف . . يا للضوء الشحيح ويا لصوت المطر المرعب ! لماذا لا يطلع النهار ؟ من أين نزلت نقطة المياه ؟ . وعاد للسرير نام كوضعه الأول تماما وانتظر . . انتظر أن تسقط نقطة مياه

ثانية ولم يحدث . . وغفا .

فى الصبح نادته جميلة :

ــ يا سيد يا سيد . . البيت غرقان فى الماء .

قفز العيال للسرير ، وتكوموا عليه ، أشعلت الأم وابور الجاز ووضعته فوق قالبى طوب أحمر . خلع سيد جلبابه ، وبرجله الحافية غاص فى طين الحجرة طلع لساحة البيت فوجد بركة مياه ، وبفأسه ووحده ظل ثلاثة أيام يحمل الماء والطين ، ويردم الغائر من الأرض ويرفع الأبواب عن الأرض ، لم يأت له أحد ، ولم يستطع أحد منهم أن يعبر جسر الدلتا فى المستنقعات الكبيرة ، وأرض لم يدهسها أحد من قبل كانت مثل عجين متخمر . وذبحوا من دجاجهم وبطهم ، وأكلوا من زرعهم ، واصطاد سيد السمك وشواه ، إلى أن طلعت شمس اليوم الرابع كفتاة خجلى متوردة الوجه ، وما أن سرى الدفء فى جسده حتى أدرك أنه غفل بعض الشىء ، جلسوا جميعا فوق قش الأرز على سطح الدار يستمتعون بالشمس ، وخافت جميلة من الدنيا المبلولة ، وأكد سيد لنفسه أن هناك أشياء غفلها . ثم قال لزوجته ، وكانت علية فى حجره تلعب فى سلسلة ساعة جيبه :

ــ سنشترى عنزة وجديا ، ونربى كلبا . . وربما

اشترينا حصانا .

كان يقاوم بكل ما يستطيع فكرة الفشل ، كان يبنى بكل ما يستطيع فكرة البيت ، يقف فى الصباحات الباكرة يراجع أعداد الشجر ، يتحسس الوريقات الخضراء ، يشم الزهور ذات الرائحة ، ويضع زهرة الدفلى وردية اللون فوق خده ، يتحسس نعومتها ورائحتها التى لا تبوح عن نفسها .

آه يا سيد . . محشورون الآن . . هم . . فى بيوتهم هناك عند المقابر ، يحافظون على شكل العائلة ، ولكن سيكون لك عائلة أيضا يا سيد . . علية ومحمد وعمر وجميلة ، وستكون عائلة لكن ببيت على نهر ، له شجر ، وله شمس وله قطار ، وطيور .

كان يلف حول البيت ، يرجوه أن لا يخيب ظنه ، يلف حول البيت راجيا أن يصير أعلىٰ البيوت ، وأن يحيمه من البعيد القادم . يلف حول البيت يربت على جدرانه ، يطبطب على أبوابه ، ويتمتم كأنما يهمس للبيت :

ــ سرعان . . سرعان ما يمضى الشتاء . .
سرعان ما يفرُّ طوبه وأمشير ليأتى آذار .
وتزهر الدنيا ، ويشتد عود البيت .

ها هو الصحو قد أتى ، وأخرجت الأرض أنفاسها من رائحة الطين والمطر والشمس . بحث عن جميلة فى الحجرة البرانية لم يجدها ، أطل عليها فى الحديقة لم يجدها ، وحين دخل الحجره المطلة بشباك على نهر مباشرة ، وجدها مثل جنيات البحر ، بقميص نومها الذى يفصح عن جمال باهر ، ونهدين رائعين ، تسحب ببطء ببطء ، وبيد باردة لمس الكتف الناعم العريان فانتفضت ، وقال مداعباً :

ـ آه . . تعاكسين السمك . . وتغرين النهر !

ومن خلف طوقها بذراعيه وحملها ، وقلبها على الكنبة ، وفضحت الشمس حلاوة الجسد والتمع فى الوهج ، وأحس بامتلاك الدنيا كلها ، وهمس :

ـ سنملأ البيت بالعيال .

نامت على صدره ذى الشعر الخشن ، وحدق بعينيه القويتين فى الفراغ .

ـ يكبر البيت وتكبر الحديقة ، ويتعلم الولد .

فأسلمت نفسها له للمرة الثانية ، واستمتع طويلا ، وكان يود لو لم ينته هذا اليوم ، وحط هدهد فوق الشباك

وكانت جميلة عريانه تماما . ضحك وأشاح بيده هش .

فلم يطر الهدهد . ضحك سيد ، وحملها كطفل فى حضنه ، وناما على السرير ، تمتم :

ـ أولاد وبنات . . وسيكون هذا الخلاء أكبر شوارع المحلة . . وبه سيكون جسر يمر فوق النهر . .

نام برأسه على فخذها ، قال :

ـ ياه يا جميلة . . لقد نسيت حلما كبيرا

انتبهت جميلة :

ـ ماذا يا سيد ؟

قال :

ـ شجرة البنسيانا . . نسيت أن أشترى شجرة البنسيانا .

وقف ، بدا كعملاق وهو واقف فوق السرير عريان ، ابتسمت جميلة ، فنط إلى الكنبة ، ثم قفز من الشباك إلى النهر ، تابعته جميلة من الشباك وهو يسبح كصبى فرح بالماء ، شدت الملاءة على ظهرها العريان ، وهى تبدت بشعرها الطويل المنكوش وجمال وجهها ونهديها

مثل جنية حقيقية . لوح لها بيده ، وهتف :

ـ جهزى ملابسى النظيفة .

ولما اغتسل سبح حتى جدار البيت ، ثم تعلق بالشباك ، ونط فوقه ، وبلل أرضية الحجرة بماء النهر ، وكانت جميلة قد اغتسلت وارتدت الجلباب النظيف ، وصياح العيال يأتى من الخارج . قال سيد :

ـ كانت القراميط تلعب برجلى . . وكانت جنية النهر تطاردنى . . لكننى رفضت . .

وقهقه عاليا .

لبس ملابسه النظيفة ، وشرب الشاى ، ونهض يلوى على شىء هام ، قالت جميلة التى تمشط شعرها :

ـ إلى أين يا سيد ؟

قال بسعادة :

ـ سأشترى شجرة بنسيانا .

فتح الباب . . وخطا إلى حديقته الصغيرة . . قال :

ـ هنا . . هنا تكون شجرة البنسيانا . .

سألته بدهشة :

ـ ماذا تطرح هذه الشجرة ؟

قال ، كأنما يفضى إليها بسر ، قال بهمس بهيج :

ـ تطرح زهورا حمراء .

ومضى بحماس تجاه قطار الدلتا .

ـ ٥ ـ

ركب زينهم الحمار ووضع أمامه شجرة البنسيانا بخضرتها الطفلة اليانعة . وسار يهز رجليه دوما فى بطن الحمار ، بينما سيد يوسع خطوه بجانبه . وكان زينهم يحس تجاه سيد بحب غامض ، يسمع كلامه وأحيانا يسمع أحلامه ، ويحبها ، ينصت لسيد باهتمام ، وعيناه لا تفارق وجه سيد الأسمر الذى يبتسم له بود . ولما قال له زينهم :

ـ نشد العربة بالحمار ونضع فوقها الشجرة .

ربت سيد على رأس الحمار ، وقال له :

ـ يا زينهم ستمضى بها كعروس . . وأنا سأرضى أن أمشى بجوارك . . بل خلفك إذا شئت . . لابد للشجرة من احتفال .

وكانت السكة طويلة ، لكن سيد من أجل شجرته ، كان فرحا بخطواته ولهاثه . زعق سيد عندما سمع صفارة قطار الدلتا تأتى من بعيد :

ـ انتظر يا زينهم .

قال زينهم ضاحكا :

ـ سنمر . . حين نصل للبيت ، يكون القطار ما زال فى الطريق .

قال سيد ناصحا :

ـ لا يازينهم . . كن حريصا . . لا تجعل أشياء تافهة تعوق فرحتنا . . تخيل لو انزعج الحمار ، وبرطع ، فوقعت الشجرة وانكسرت . . يا حمار .

وضحكا معا . . وانتظرا قطار الدلتا الذى مر بتؤدة ، يصفر كالنواح ، ومضى ، ورأى سيد بعض الطرابيش والطاقيات بنوافذ القطار وابتسم وقال :

ـ أين هذا من قطار مصر . . ساعتين زمن وأكون فى مصر . . أمر من محطة مصر لشارع عماد الدين وأكون مع عبد الوهاب شخصيا فى دار سينما واحدة ، هو يغنى وأنا أهيم به .

ومضى القطار بعيدا ، وتخطوا الجسر إلى الوحل . . إلى البيت .

ـ هيه

هكذا صرخت علية ، وجرت وتعثرت ووقعت ، ثم تعلقت برقبة سيد الذى انحنى قليلا وحملها كحمامة . فيما خرجت جميلة تزر عينيها وتبص عليهم . قال سيد :

ـ يا جميلة . . هاتى الفأس وحضرى الشاى .

وقف الحمار مشدودا لشجرة يهز ذيله وقد رمى له زينهم ببرتقالة فالتهمها الحمار بسرعة فائقة ، وزينهم جلس يأكل فى بقية البرتقال الذى أعطته له جميلة ، وسيد يحفر بلا توقف . وحين أتم الحفر ، قام واتجه إلى الشجرة ، احتضنها برفق . . ثم مال بحنو تجاه الحفرة ووضع الشجرة ونزلت جميلة على ركبتها لإزاحة التراب داخل الحفرة بسرعة ومن كل الجوانب ، وحين ردم سيد بجوارها بالتراب ، وحين روى الشجرة ، رفع بكفيه إلى مستوى أذنيه ، وقال :

ـ اسمعى . . اسمعى . . إنها ستغنى الآن .

ـ حلال عليك تأكل معنا يا زينهم يا بن سكينة .

رد زينهم

ـ لو أكلت . . سأحلى بالبرتقال مرة أخرى . . ثم أشرب الشاى مرة ثالثة .

ضحك سيد وقال بتأكيد :

ـ ستأكل . . وتحلى ، وتشرب الشاى يابن سكينة .

حمل زينهم « عمر » ليركب فوق الحمار ، ويلعب برجليه فى بطنه ويقول بلثغة :

ـ سى

ويهتز ويهتز والحمار يأكل فى بعض القشور بلا حركة . وفيما زينهم يسند عمر بيديه رأى شخصا لا يعرفه شديد السمرة ، طوله فارع مديد ولافت للنظر . توقف ، وظل يرقب القادم الذى كان يتقدم باتجاه البيت بثقة وقصد . وصل الأسمر الفارع أمام البيت ، وسأل زينهم :

ـ سيد موجود ؟

حمل زينهم عمر فوق كتفيه ، وهرول للداخل ، وحط عمر ، وخرج بسيد الذى واجه الغريب بهدوء ،

وقال :

ـ تفضل .

قال الأسمر :

ـ لا . . أريدكم فى كلمة .

وأشار بيده للنهر ، أخذه سيد إلى النهر ، وسأله :

ـ خير !

أخرج الأسمر « سيجارة » ، ورفض سيد سيجارته شاكرا ، أشعل الأسمر سيجارته ثم همس :

ـ خالك يقول لك مبروك البيت . . ويريد المائة جنيه .

نظر له سيد طويلا ، وسأل :

ـ ولماذا لم يأت خالى

همس الأسمر :

ـ خالك مشغول . .

أدرك سيد أن فى الأمر شيئا ، أمسكه من كوعه :

ـ أخبرنى بالتفصيل .

قال الأسمر مصرا عى همسه وغموضه

ـ يقول لك مبروك البيت . . فقط . .

قال سيد متوسلا :

ـ خالى . . لماذا لم يأت . . ومن أنت ؟

تخلى الأسمر عن همسه ، ليصمت تماما . احترم سيد صمته ، وسأل :

ـ وقع لخالى مكروه ؟

أومأ برأسه صامتا .

قال سيد :

ـ ما هو ؟ . . أساعده . . هو ليس خالى ؛ هو أمى وأبى . . هو . . كل شىء .

زعق الأسمر للمرة الأولى والأخيرة :

لن أقول لك .

نظر فى عينى الأسمر الجامدتين . هكذا خاله ، لا يتركه هانئا ، دائما معذب بحبه وحنينه إليه . . لا يعرف سيد لماذا لا يجد الطمأنينة إلا فى هذا البعيد . . قال :

ـ حاضر .

ودخل سيد الدار ، تبعته جميلة ، لكنه لم يقل شيئا ، انحنى ونزل زاحفا تحت السرير ، أمسك المائة جنيه ، واطمأن . . خرج بهدوء ، وطلع من الباب ومعه ربطة قماش صغيرة بها المائة جنيه . قدمها للأسمر ، الذى مد يده وقبل أن يمسك باللفة الصغيرة ، قال :

قال لى . . لو أنك فى حاجة للفلوس خذها . .

وقال . . إذا كنت محتاجا لجزء خذه . .

وقال . . لو أنك صرفت جزءا منها فهو ملكك .

رد سيد ، وابتسامة رائقة محزونه تملأ وجهه :

ــ المائة جنيه كما هى .

أخذ الأسمر الفلوس ، قال سيد وهو يمسك بيد الأسمر :

ــ فقط . . أريده هو .

ومضى الأسمر ، ونسى أن يقول السلام عليكم .

ظل سيد بمكانه ، فكر فى الأمر بسرعة ، غير أنه مضى كأنه لا يبالى ، وزعق :

ــ يا جميلة . . ألن يأكل زينهم ؟

كان أصيل الشتاء طيبا ، ولكنه بارد . جلسوا فى الحجرة الجوانية ، أشعلت جميلة وابور الجاز طلبا للدفء ، ووضعت الأكل ليسخن ، واندفس محمد فى حجر أبيه ، وعلية لفت نفسها بطرحة أمها ، وأخذ عمر يبحلق فى النهر خلال زجاج الشباك .

قال زينهم لسيد :

ـ أتعرف يا أبا محمد . . تهفو نفسى إلى « أبو فرو »

رد سيد :

ـ خيبك الله . . كل يوم نأكل « أبو فرو » . . تعال فى الليل لنحضر المنقد ، ونشوى ونأكل .

قال زينهم :

ـ ليس الليلة ـ ليلة أخرى وأنت طيب .

كان سيد يشرب من دورق زجاجى كبير مطبوع عليه زهرة حمراء ، اشتراه من طنطا ، حين دق الباب دقة قوية ، ثم دقات مترددة . جرت جميلة إلى الباب ، وفتحته ، وجدت حماتها أمامها بشعرها الأصفر الذى اشتعل من شمس الأصيل ، حماتها . . فى بهائها المعتاد . . تمتمت جميلة وهى تمد يدها بالسلام . .

ـ ستى !

مدت الحاجة يدها اليمنى ، أمسكت بيد جميلة ، وتخطت الباب كملكة ، وجميله يدق قلبها وتقول لنفسها : لماذا أتت ؟ ، وخرج صوتها محشرجا . .

ـ تفضلى يا ستى .

تسمرت عيناه على أمه . شهور عديدة مرت بلا سؤال ، لا أم ولا أب ولا أخ سأل عن سيد . تمتم وهشأ ، فرحا فى آن :

أمى :

رمى « محمد » من حجره ونهض . شدها من بديها الباردتين :

ـ تعالى .

دخلت لم تتكلم ، وعليها جرت علية وجرى محمد ، وهما يهللان فرحا ، وعمر ينظر إليهم فى استغراب ورجع يبحلق فى النهر . جلست بينهم ، كأنما هبطت من السماء تحلقوا حولها ، احتضنت علية ومحمد دون كلمة . قال زينهم :

ـ كيف أنت يا ستنا ؟

لم ترد . نظرت طويلا بعينيها الزرقاوين إلى ابنها الأسمر النحيف ، طويلا حدقته ، ثم انهمرت فى البكاء ، ونشجت . قام سيد ، وراءها جلس ، طبطب على ظهرها ، قبلها من كتفيها .

ـ كيف أنت يا أمى ـ أهون عليكى كل هذا الزمن !! لا سؤال ولا بصة واحدة ، وأنا المغضوب علىّ خفت أعود لدارى . . لربما . . ربما طردنى أبى .

مسحت دموعها ، ومخاطها ، ولفت إليه بسرعة ، احتضنته ، ربتت عليه ، ومرت بيديها البيضاوين العفيتين على شعره الذى طفت على جوانبه شعيرات بيضاء ، قبلته ، ولم تتكلم . قال سيد :

ـ كلى معنا يا أمى .

قالت جميلة ، وقد فرح قلبها برضاء الحاجة أخيرا ، وكأنما رجعت إليها الحارة كلها ، قالت :

ـ نورت بيتك ومطرحك يا ستى .

ضحك زينهم وقال : بسم الله . . بسم الله .

كان للشاى بهجة دافئة فى ذلك الشتاء ، بل ذلك اليوم بالذات ، يوم عادت الأم تسأل عن ابنها ، يوم شعر

سيد أن له أماً ، وحكت الأم ــ وهى تبلع اللقيمات بفرح اللقاء وصعوبته عن أبيه الذى سأل عنه كل الناس من وراء ظهره . . سأل الجزار والحلاق . . وكم من المرات وقف بجوار جسر الدلتا ينظر للبيت الذى عنْد النهر ، وحكت عن كامل الذى يرجع البيت ليلا ورائحة السبرتو تفوح من فمه . . وكان للشاى بهجته ، وللدفء همسه الحانى الذى لهم . ومضى زينهم يمشى على أربع حتى يركبه محمد وعلية كحمار ، وكان يلف على الحصير حول الأم وسيد وجميلة ، وأحيانا ينهق . وحين قالت الأم لابنها :

ــ هل عرفت يا سيد . . سأذهب هذا العام للحجاز .

كف النهيق ، والصراخ ، سكت صوت الوابور ، وتأملها سيد بدهشة :

ــ حقا . .

أردفت بسعادة :

ــ سأحج يا سيد .

أخذتها جميلة تحت إبطها ، وهى تقبل رأسها ،

وتقول :

ــ ألف مبروك يا ستى . . الف مبروك يا حاجة .

كاد « سيد » يرقص ، بل إن « زينهم » رقص فعلا ، وقال بصوت عال :

ــ سأرقص يوم عودتك يا حاجة . . لكن أمانه هاتى لى من أرض النبى تلفيحة .

قالت الحاجة :

ــ عينى لك يا زينهم .

وحين قامت جميلة لتشعل مصباح الجاز نمرة عشرة ، قال زينهم :

ــ طالت جلستى . . وعلىّ أن أذهب قبل الظلام .

ووافقه الجميع ، وقام ، وركب حماره ، وكان اللون البنفسجى يلعب مع السحب . نظر زينهم لشجرة البنسيانا ، ثم قال قبل أن يمضى بحماره :

ــ قلت . . ماذا سيكون لون زهورها ؟

رد سيد :

ــ أحمر . . أحمر يا زينهم . . أحمر منك .

وضحكوا ، والأم ضحكت ، ومن كثرة الضحك قالت :

ـ اللهم اجعله خير .

ومضى زينهم ، وقال الأب قبل أن يدخلوا البيت :

ـ انظرى يا أمى . . هذه جنينة صغيرة . . زرعت فيها أشياء بسيطة .

وسمع سيد صفارة قطار الدلتا ، سمعها قوية قادمة من بعيد ، لكنه سمعها كالنواح أيضا .

لحظتها كان زينهم راكبا الحمار الذى أرهقه الوحل . نهق الحمار ، وتشبث بحوافره بالأرض . حين سمع صفارة القطار . لكن زينهم لا ينتظر ، وقال لنفسه :

ـ سأصل دارى قبل أن يأتى .

وضرب بطن الحمار بكعبه ، وحمسه للمضى ، خطا الحمار بعض الخطوات ، فصرخ فيه زينهم فجأة فجرى ، لكنه بين القضبان وقف وتسمر ، ووقفت أذناه رأى زينهم القطار يقترب ويقترب ، نط من فوق الحمار ، وأخذ يدفع ويزيح ويزعق فيه حتى يتحرك أو يجرى . يزيح . أصر على إنقاذ حماره ، لكن الضربة كانت قويه ،

مكتومة ، وكأنما رجت قطار الدلتا بركابه قليلى العدد ، الذين لم يتبينوا بالضبط من الذى ضربه القطار . ومضى القطار ببطئه وسواده ، وكان سيد يسمع صفارته كالنواح بقلق .

ـ ٦ ـ

اعتدل الليل والنهار . قال سيد لأبى سعدة وكانا جالسين بجوار شجرة البنسيانا .

آخر الحسوم وبرد العجوز . . سأزرع الكمون . . انظر . . ظهر الهدهد فى السماء .

قال أبو سعدة :

ـ لماذا لا تأتى يا سيد لترى أباك . . والحارة .

قال سيد وهو فى ملكوته الخاص :

ـ فى مثل هذه الأيام كانت حرب الجمل .

قال أبو سعدة وهو يلف سيجارة :

ـ يا أخى دماغك . . تشغل نفسك بأشياء غريبة .

قال سيد بأسى :

ـ عندما يسخن بطن الأرض يبدأ الربيع . . الله يرحمك يا زينهم . . كان يريد أن يرى زهور البنسيانا الحمراء .

كان سيد مهموما ، قال :

ـ هيا بنا نتمشى .

وكانت جميلة حامل ، والقلق أتى من البيت الذى تآكل منه الجزء التحتى من الجدار أسفل الشباك . . كان سيد يعوم فى النهر حين لمح التآكل ، وكلما سده « سيد » بالطين ذاب الطين ، كلما حاول تساقط بعضه . قال أبو سعدة :

كيف حال زرعك الذى لن يؤكلك لقمة ؟ . . وكيف حال زهورك التى تحلم أن تضعها فى الصور مثل الملك ؟

ابتسم سيد لأول مرة ورد عليه :

ـ لا أحب الملك . . ولا أحب أن أفعل مثل الملك .

تردد طويلا ، كان الشوق فى قلبه قد تفجر خاصة

بعد زيارة أمه التى ستسافر للحجاز . ومن يعرف متى يكون اللقاء ؟ تفجر الشوق لأبيه وأخيه وزوجة أخيه والعيال . وللحارة الضيقة السد ، والفلاحين الذين لهم جلبة لطيفة فى الصبح الباكر مع البهائم . تردد ثم قال متسائلاً :

ــ أتأتى معى يا أبا سعدة لنزور الحارة ؟

تهلل وجه أبى سعدة ، ولم يجب ، ولم يدع له فرصة واحدة للتراجع أو التفكير بل شده من يده ، وانصاع سيد كطفل ، وعبرا جسر الدلتا ، وصعدا نحو المحلة التراب والمقاهى ورائحة المصابغ ، ورائحة القماش التى يحبها سيد ، صعد لأعلى ، هاجمته رائحة الجوزة وروث البهائم . سلم على « عباس » صاحب الحنطور ، الذى أمسك بسيد ليشرب الجنزبيل ، فوافق أبو سعدة ، وشده إلى مقهى البليهى . . كانت المرآة كبيرة وعريضة وعليها طاووس من ورق مفضض ، ذيله المروحة متعدد الألوان ، يلتمع فى بهجة وخيلاء . تحت المرآة جلس سيد ، وضع رجلا فوق رجل ، وقال لعباس :

ــ هذا زمنكم يا عباس . . زمن الحنطور . . الشوارع وسعت . . والناس تكاسلت ، تريد أن يحملها

أحد من شارع لآخر .

قال عباس وهو يلف سيجارته :

ـ اللهم لا حسد ، بينى وبينك . . الشغل كثر هذه الأيام ، الهوانم تركب الحنطور ، ويا ربى على السيقان التى تطلع وتنزل ، والصدور الرجراجة .

ضحك سيد بصوت عال ، وقال لأبى سعدة :

ـ هذا الملعون تزوج اثنتين ، وما زال كالجرادة .

قال أبو سعدة :

ـ ثلاث . . تزوج ثلاث مرات . . الثالثة فى البيت .

ضحكوا جميعا ، وقال سيد :

ـ نفسى يا واد يا عباس تأخذنى فى نزهة حتى المصانع . . أريد أن أرى المصانع . . أدور حولها ـ المحلة ستكبر يا عباس .

وأخذهم الكلام وشربوا بعد الجنزبيل الشاى واليانسون والقرفة ، ثم نهض سيد قائلا :

ـ أستأذن أنا . . هذا موعد عودة أبى من

السلخانة . . سأذهب لأراه وأسلم عليه .

حين دخل الحارة لأول مرة منذ شهور استقبلته بصمت غريب . لا أحد فى الحارة ، حتى العيال اختفت . رائحة الشتاء قوية . خفق القلب ، وكغريب تقدم خطوة وتراجع خطوة ، حتى وصل إلى عتبة الباب المفتوح . رآها . . خديجة . . جالسة أمام طشت مملوء بأرجل الذبائح وبعض الرؤوس ، والكوارع ، ولحمة الرأس . هذه الأكلات الشهية . من زمان وهو يأكل مثل رجل برى ، يأكل السمك من النهر ، ويذبح الدجاج الذى يربيه ، ويشرب النعناع الذى يزرعه . كوارع ، وسيقان خديجة أيضا عاريتان ممدوتان . شهقت :

ـ أهلا يا سيدى .

وفى نهضتها بسرعة سقط من صدرها كيس النقود الفضية الذى اصطدم بعنف بالماء والطشت . وكأنه لم ير دخل . . ومد يده التى ابتلت من يدها المبتلة الطرية .

أين أخى وأمى وأبى . . والعيال .

ضربت على صدرها :

ـ يا خرابى . . نسيت إننا فى موسم شعبان ، وكلهم

فى السلخانة . الموسم يا سيدى . . أنسيت كارك القديم . . ألم تمر على دكان أبيك .

ثم لوت شفتيها تعجبا .

حتى الموسم نساه ، وقبل أن يضجر من نفسه قال لنفسه :

وما أهمية الموسم . . الموسم ليس هو الدنيا ، أو العلم أو الجهل ، ماذا إننى نسيت أن اليوم هو الموسم ؟!

وخرج أكثر غربة من الدار التى استقبلته بخديجة وفلوسها . والبلاط الذى لاحظ أنه لم يعد نظيفا . . آه كم أكلت هذه الدار من جميلة ؟ كانت تجعله مثل الفل . خرج أكثر غربة ، ومشى يجر قدميه بألم ، هو قال إنه ألم ليس له معنى ، وأقنع نفسه بأنه يتألم لأسباب لا يعرفها ، ووقف أمام دكان الجزارة بالشارع الواسع . ولشد ما كانت دهشته عندما رآه الأب وهتف بفرح :

ـ سيد !!

ثم كاد يقع وهو ينزل من عتبة الدكان العالية ، واحتضَنه بقوة وحب ، كان جلبابه مبتلا ، وبه رائحة دم البهائم ورائحة الدهن ورائحة العرق الذى يعرفه اختنق

سيد بالبكاء . ولكن متى كان « سيد » يبكى ؟ عض على شفته ، وكان العجل يتدلى من الجنازير أمام الدكان ضخما ونظيفا ، والزبائن سلمت على سيد . تقدم « سيد » من أبيه وأخذ منه السكين الكبير المسنون مثل سيف ، وقال :

ـ عنك ياأبو .

نهارا كاملا وقف سيد فى الدكان ، يقطع اللحم ، ويزن ، يبيع ، ويلم النقود . لم يسترح إلا بعد صلاة العصر . جلس مع أبيه على دكة أمام الدكان ، وقال الأب :

ـ مرُ علىّ بين حين وآخر ياسيد .

وعندما سأله عن أمه . . رد الأب . .

ـ أمك تزور . . تزور إخوتك البنات لتوزع عليهم الموسم . وتغير وجه سيد لأنه متسى . تلعثم الأب الذى فهم نظرات ابنه ، وقال :

ـ ولربما ـ لربما كانت ستمر عليك .

حين هم بالعودة إلى نهره ، دس الأب فى يده ثلاثة جنيهات ، وبعد محاولات أخذها سيد . ورجع .

كان سعيداً وأسياناً بلحظات أبيه ، ولكنه تذكر

جميلة ، وماذا فعلت اليوم ؟ قال إنه سيمشى قليلا مع أبو سعدة ولم يعد . وهاهو اللون الأرجوانى يزحف فى السماء ، وبعض من السواد فى سحابات قاتمة بعيدة ، ذهب إلى « زكية » بائعة الخضر والفاكهة والقلل القناوى . اشترى فاكهة وخضراً من كل نوع ، ونزل المنحدر . وسمع من يناديه ، وحين التفت وجده « عباس » جالسا فوق الخندق اتجه إليه وحط بحمولته ، وقال عباس :

ـ عينى لك . . أوصلك .

شكره « سيد » ، وخبط بيده على الخندق ، وقال :

ـ خندق ـ والله ياعباس لا أحد يعرف فائدة هذا الخندق .

سخر عباس قائلا :

ـ سيترك الألمان العالم كله ويأتون لضرب المحلة . . والوراقة بالذات !

سخر « سيد » أكثر وقال :

ـ أوامر . . أوامر ياعباس . . هل هو خال فعلاً ؟

قال عباس :

ـ بالطبع . . هل هو للسكنى ؟

قال سيد :

ــ ظننت أنه . . سلام ياعباس .

لم يكمل كلامه ، وحمل حمولته من الفاكهة والخضر ، وعبر جسر الدلتا ، وسمع صفارة القطار التى كرهها ، وأخذ يكلم نفسه بصوت عال :

يتركون كل حضارة العالم ، ويبنون لنا خندقا ، حتى نختبىء فيه كالفئران . . يعلموننا الفأرنه .

ابتسم فى مرارة . .

خندق !! ولماذا الخندق ؟

كان الغروب قد حط على الأشياء فبدت كتلا بلا ملامح . مد يده وخبط على الباب . فتحت جميلة ، أولته ظهرها ولم تنبس . عرف غضبها الأولاد نائمون على الحصير . والطبلية فى وسط الحجرة . على الطبلية أطباق الصباح بها ثلاث دجاجات محمرة ، وأطباق بها الطبيخ ، واضح أن الأكل بارد ، وأنه كان شهيا . إنه برد من وقت طويل . قبل أن يبدى « سيد » دهشته ، أجهشت جميلة بالبكاء ، وانفجرت فى الكلام :

ــ يوم الموسم تتركنا وتمضى . . أين كنت ؟ نهار كامل !! طبخت لكم وجهزت الموسم وظل العيال بلا أكل حتى ناموا . . خرجت عينى من البحلقة على

الطريق . . خفت من النهر ، وخفت من قطار الدلتا ، وخفت من العفريت اللابد فى الجسر . . حرام عليك . . يوم مفترج كهذا . . . ولم تكف . عرف سيد غلطته ، لو قال لها سأمضى عاما بالخارج ما تعترض . « ولكن هكذا . . موسم . . ومن يذكرنى بهذا الموسم ، ولماذا لم تذكرنى » .

قال بصوت خفيض حان :

ـ أشعلى الوابور . . ادفئى الأكل .

وشيشن الوابور وناره حولت الصمت إلى مكان دافىء ، أيقظ العيال ، وطبطب على الحامل ، وفرح العيال وجلسوا حول الطبلية ، وبدأوا موسمهم المتأخر قليلا ، والتهموا الدجاجات الثلاث . وشرب الشاى . استمتع بالشاى للغاية ، وشد جزءا من ألف ليلة وليلة ، وفتحه ، وقرأ عن التاجر والنصابين الأربعة ، وضحك على أفعال المحتالين ، واصل القراءة ، ودخل فى الليل وسرح قليلا . نام الجميع ، قام بحذر وارتدى البالطو ولف كوفية حول رقبته . وقف أمام الباب . تردد . . إلى أين سيذهب . الظلمة فى الخارج نام الطير ونام البحر ونام النهر . مد يده إلى المزلاج ثم خرج برغبة . داس على الأرض الطين . هاجمته بعنف رائحة التمر حنة النفاذة ،

اقشعر بدنه بلا سبب . أطل على التمرحنة وحدق . كان جالسا عليها . . الصياد . . صاحب البغلة . . عبق العالم كله برائحة التمرحنة ، ارتجف حين وجده يضحك . ثم تماسك وفتر فمه بابتسامة هى مزيج من الخوف والفرح . الصياد على شجرة التمرحنة . كما قال من زمن بعيد . هاهو يفى بوعده . قال الصياد الذى ضحك ضحكة أليفة :

ـ مساء طيب ياسيد . . انتظرتك طويلا فوق الشجرة . .

ظننت أنك نسيتنى .

ثم نط إليه كعملاق ، وسحبه من يده . . استسلمت يد « سيد » فى كفه الضخم ، ربت الصياد على كتف سيد برفق بالغ وقال :

ـ هيا بنا لنجلس عند النهر .

جلسا عند الشاطىء هو ذات الليل البهيم . غير أن البرودة انسحبت منه تماما بل إن دفئاً يمتلك الجسد ويسرى فيه . هل هو دفء الدهشة . أم للخوف دفء ؟ أم أنه دفء الصياد !!

قال الصياد ، وأحس سيد بأن الصوت خارج من

النهر :

ـ جئت إليك لأمر هام . . وأعطيك الأمان .

قال سيد :

ـ على الرحب والسعة .

قال الصياد :

ـ عليك أن تنقل بيتك هذا من هنا .

انقبض قلب سيد ، قال فى استغراب :

ـ أنقل بيتى ؟!

قال الصياد :

ـ نعم . . بيتك هذا الذى ساعدتك فى بنائه ـ أقول لك الآن . . انقله .

انتتر سيد غاضبا :

ـ لن يستطيع أحد فرض هذا . . حتى أنت نفسك

انحنى إلى الصياد ، وهو يقول بصوت عال ومتوسل فى آن :

ـ بيتى . . الذى بنيته من شقائى وعرقى . . حلمت به طوال العمر ، وبنيته لحظة لحظة بدمى وروحى .

نهض الصياد وربت على « سيد » بحنو ، ثم أخذه

تحت ذراعه الضخم ، وقال كمن يكلم طفلا :

ـ ستنقله ، لأنه يتآكل . . وسيقع . . النهر سيأكله . . سيلتهمه ، وستجد نفسك وزوجتك وأولادك ذات يوم غارقين فى النهر .

قال سيد بحدة :

أنت تخرف .

ثم سكت فورا ، حين تذكر الجدار الذى يتآكل ، والذى لم يقطع قط أن يرممه . سكت ، ثم أمسك بيديه الصغيرتين يد الصياد الضخمة .

ـ ماذا تقول ؟

هز الصياد رأسه وقال :

ـ انقل البيت للوراء . . بعد النهر وقبل الجسر . . وانقل حديقتك وأشجارك . . إننى لم آت إلا لمصلحتك . . ولعلك تثق بى .

قال سيد :

ـ ولكن . . ألا يمكن أن أبنى جدارا آخر من الداخل . . و . . أدرك الصياد أن « سيد » لا يريد أن يتنازل عن بيته وحلمه ، فأمسكه باصبعين غليظين من أذنه وقال :

ـ إنها تسكن تحت نافذتك . . ولن تبرحه فاتركها إذن . . وارحل أنت . . أنها جنية طيبة فلا تجعلها تضرك . . هل فهمت ياسيد ؟

وقبل أن يفهم سيد ، وقبل أن يجيب ، وقبل أن يسيطر على نفسه ، رأى البغلة وقد خرجت من النهر ونط إليها الصياد بخفة ودون صوت ، ونزلا مرة أخرى فى النهر .

كانت تهزه بقوة بيد ، ثم بيدين ، وبقلب مرعوب ، وهو يهتز مثل جثة ، زعقت :

ـــ سيد . . قم ياسيد .

فتح عينيه نصف فتحة ، آلمه الضوء ، أغمض عينيه ، رآه بجرمه الضخم أعلى شجرة التمرحنة . انتفض ، وجلس فزعا ، فيما مدت جميلة يدها بكوب ماء ، وهى تسأل بعطف وخوف :

ـــ ما بك يارجل ؟

قام . دس قدميه فى حذائه ، استند على جميلة ، ثم أخذ نفسا عميقا ، وتركها وخرج . لف حول البيت ، تحسس الجدران ، يدفعها بيده فلا تقع ، يتفحصها ، يكلم الجدران :

ـ ماذا حدث . . ؟ ماذا حدث أيها البيت ؟

أسندت بطنها بيديها وجرت وراءه :

ـ ماذا جرى ياسيد ؟

ولطمت وجهها . طول عمرها تخاف عليه . تخاف عليه من كتبه الصفراء والحمراء رأته ذات مرة يكلم قطة سوداء . هل كنت تكلم قطة سوداء ياسيد ، يسخر سيد ، ويقول :

كنت أحكى لها حكاية لن يفهمها صغارى .

قالت ذات مرة :

احرق هذه الكتب .

كاد يقتلها وصرخ :

الحياة كلها كوم . . والكتب كوم آخر . . ماذا تفهمون أنتم من تذكرة داود . . وألف ليلة . . ومحمد على باشا . . كان دائما يقول « محمد على باشا » ، سألته عنه ذات مرة . عض شفته السفلى وقال :

رجل ساحر .

وهاهو يجرى الآن مثل مخبول حول البيت . لطمت وقالت لنفسها :

ـ ياخرابى عليك يارجلى .

دخل الحديقة ، ببطء وحذر ، كأنما سيمسك به فوق الشجرة . بص . رأى شجرة التمرحنة . لم تكن رائحة التمرحنة نفاذة مثل الليلة الفائتة . عرف أن الرائحة كانت تفوح من الصياد وليس من الشجرة . اقترب منها ، هزها ثم هزها ، ثم هزها بعنف ، وهو يقول :

أين كان يجلس . . هنا . . أم هنا ؟
ياشجرة الدفلى ارحميني . . ارحمنى أيها النعناع . .
هل رأته زهرة واحدة . . أم أننى مجنون ؟

جلس بجوار الشجرة ، وجميلة ركزت أمامه ، تنظر فى عينيه المفتوحتين بدهشة ، طبطبت على كتفه ، وسألته كأم وأخت :

ـ ماذا بك ياخويا ؟

أشار بيده السمراء :

ـ شاى . . هاتى كوب شاى .

فمدت يدها ، وأمسكت بيده ، شدته ، فقام ، وطاوع الزوجة ، بينما بدأ يبترد .

دخل أبو سعدة جريا ، متلهفا على صاحبه الذى رقد فوق السرير ، ملتفا بحمل صوفى ثقيل ، مال إليه . سأله :

ـ سيـد . . مـاذا بـك يـاصـاحبى ؟ . . جـاء المرسال . . الحقنى ياأبو سعدة . . مالـك ياجميلة ؟ . . مـاذا بـك يـاصـاحبى . . ؟ كنت بـالأمس كـالـزرعـة الخضراء .

أزاح سيد الغطاء الثقيل ، وقال :

ـ تعالى ياجميلة .

اقتربت جميلة وهى تقفل طوق جلبابها بالدبوس . أكمل سيد :

ـ سنأكل الغداء معا . . ثم . . ننقل البيت .

قالت جميلة بحسرة :

ـ سترجع للحارة !

قال سيد :

ـ لا . . سننقل البيت بعد النهـر . . وقبل جسـر الدلتا .

دهش أبو سعدة ، قال وهو يشيح بيده :

ـ أى كلام هذا يارجل ؟

قال سيد باصرار :

ـ كما أقول لكم . . سننقل البيت . . ولن تتخلى عنى ياأبو سعدة .

قال أبو سعدة بغيظ :

ـ وجميلة الحامل . . ماذا ستفعل ياسيد ؟

قال سيد ، وبدا وقد استرد صحته تماما :

ـ جميلة لن تفعل شيئا . . ستجلس وسط العيال

ونزل من السرير ، وقال :

ـ تعال . . تعال ياأبو سعدة .

وقبل أن يخرج من الباب قال :

ـ جهزى الغداء ياجميلة .

أمسك بأبى سعدة من يده ، ومشى به عموديا من البيت حتى قبل الجسر بمائة متر . وقف . قال :

ـ هنا . . هنا سيكون البيت .

وجلس القرفصاء ، ونظر أمامه للنهر . تنهد . وقال :

ـ آه من حلم البيت . . بعد أن حققته ، وزرعت له جنينة ، مكتوب علىّ أن أنقله لأبدأ من جديد ـ لكننى لن أتعب ياأبا سعده . . أنا فعلا كنت مندهشا كيف أحقق حلمى بهذه البساطة . . فعلا فعلا . . الأمر ليس بسيطا .

جلس أبو سعدة بجواره فى الفضاء والشمس . سأله :

لكن لماذا تنقله . . ومن كتب عليك ذلك ؟ سكت هنيهة ، لكنه قال وكأن الاجابة رتبها فى ذهنه منذ الصباح :

ـ النهر سيأكل البيت ، كان يمكن أن أبنيه هكذا ، لو كان هناك طرحٌ للنهر . . ثم . . ثم إن الدنيا ستعمر ، وسيصير هنا كوبرى . . وتمثال . نعم . . تمثال لطلعت باشا حرب لأنه بنى كل هذه المصانع . . وكل صناعة مصر . . ولذلك . . سأبنى البيت هنا . . ولن تظل الدلتا هكذا . . مكانها سيسير الترام هذا الذى له جرس رقيق يدق

سكت قليلا . وتهلل وجهه فرحا :

ـ ياأبا سعدة . . هل تظن أن العالم سيظل كما هو ؟ أفهمتنى ياأبو سعدة ؟

تعب أبو سعدة من صاحبه . قال فى زهق :

ـ لا أفهمك ياسيد . . إنك تخرف كعادتك . . تمثال وترام . . فى هذا الخلاء . . فى هذا النشع . . فى آخر الدنيا . . هأنت تفعل مثل الذين بنوا الخندق . . خندق للحرب . . أى حرب . . ألمان وإنجليز .

وقف سيد قائلا :

ـ هانحن نضيع الوقت فى الكلام ،

زعق أبو سعدة :

ـ لا نضيع وقتا . . هل ستنقل البيت اليوم ؟

قال سيد مؤكدا :

ـ بالطبع اليوم . . بل الآن . . وقبل أن نتغدى .

لم يتمكن أبو سعدة أن يتكلم أو يرد ، فقد جرى صاحبه حتى جسر الدلتا ، وصرخ بكل ما يستطيع :

ـ ياخلق . . ياخلق . . الحقونا .

ياخلق . . الحقونا . . ياناس .

زعيقة عبر جسر الدلتا ، ووصل للمتناثرين هناك ، كان أولهم عباس الذى كان يجلس عند الخندق يلف سجائره ، نهض كالملسوع . وجرى آخرون ، ظنوا أن قطار الدلتا قد دهس واحدا من الذين يعترضون طريقه مثل كل مرة ، انشقت عنهم الأرض وجروا يلبسون النداء . وتجمعوا حول سيد ، الذى خلع جلبابه ورماه أرضا . شال أبو سعدة الجلباب . قال سيد « الحقونا » وهو يجرى لا يدع لهم فرصة للتفكير ، يجرى فيجرون ، إذ كانت الأفكار تلتمع متدفقة فى ذهنه ، لابد أن يأخذهم على غرة فى حماسهم للانقاذ والمساعدة . لو توقف عن الجرى لتوقفوا ، لو سكت لمضوا لحال سبيلهم ، يعرف

جيدا أنه الآن القائد ، وتلتمع الأفكار وتتألق . سيقول لهم افعلوا كذا فيفعلون . ازداد العدو وراءه ، ورأى أخاه « كامل » يجرى بقوة لا يعرف بالضبط متى جاء . . أو متى وصلته صرخته ؟ كان « كامل » يلهث ويسأل :

ـ ماذا ياأخى ـ ماذا ياسيد ؟ . . خير ياأخى ؟

وكامل من الشخصيات القليلة فى المحلة التى يخشاها الجميع ، هو القوى والفتوة ، كلهم يرهبون كامل ويحبون سيد . فرح سيد حين رأى كامل . يعنى رجال كامل فى الطريق . لو كان هذا فى الحسبان ما تردد لحظة . كان يغلق المقاهى ، وينهى الأفراح ، وأيضا يحمى الحارات . الفتوة ذو الوجه الجميل ابن المعلم صاحب أكبر دكان جزارة . عرف سيد أنها لحظته ، ولو تراجع خطوة لانهدم كل شىء للابن ولغاص بيته فى النهر ، وما يدرى به أحد .

أمسك كامل بسيد من كتفيه بعنف ، واستوقفه :

ـ ماذا جرى ياسيد ؟

وقف سيد . . وجد الجمع الغفير . . حشدا من الرجال يعرفهم ولا يعرفهم ، أشار إلى البيت . قال :

ـ البيت يغرق فى النهر . . يغوص . . سنموت

جميعا .

سأله كامل فى دهشة :

ـ والعمل . . أننقل العفش ؟

بص سيد لعيون الرجال ، وعرقهم ، وقال :

ـ لا . . سننقل البيت ، وسأقول لكم كيف يارجال . هكذا . . أخرج الرجال العفش وتكوم تحت شجرة التوت ، وتكوم العيال بجواره ، أفرغوا البيت من آخر ملعقة وآخر ورقة من كتاب ، أصبح خاليا مثل لعبة ورقية . دخل سيد حجرته المطلة على النهر . وأطل من الشباك ، أطل تحته مباشرة ، وهمس :

ـ سأترك لك المكان ياسيدة النهر . . ولا تزعلى . .

سأترك المكان . . ولنا الأمان .

ورأى دجاج النهر يسبح فى جماعات . لم يره من زمان بهذا الجمال ، وردد لنفسه :

ـ لن أكون بعيدا عنكم .

وعندما سأله الرجال المعفرون بالتراب ، المشمرون جلابيبهم :

ـ وماذا بعد ياسيد ؟

هكذا . . نهد العروق الخشبية تحت البيت . سأل

« كامل » بين أتباعه :

ـ وماذا ستفعل العروق ؟

قال سيد الذى التمعت فى رأسه الأفكار ونبتت كخلق شيطانى :

ـ كل الأعمدة الخشبية ستدخل تحت البيت ، سيصبح البيت هيكلا فوق الأعمدة ، سنربط الأعمدة العروق بهذه الحبال التى تركها لى الصياد .

قاطعه كامل :

ـ أى صياد ؟

استدرك سيد :

ـ لا شىء . . لا شىء . . بهذه الحبال نربط الأعمدة ثم نشدها شدا ، وبلا توقف ، سيصير البيت لعبة فوقها ونشده حتى مكانه الذى أريد .

خلع كامل جلبابه الصوفى ، واللاسة ، وتبدل وجهه الجميل الأبيض إلى وجه أحمر ، عازما على تحقيق كلام أخيه ، وأشار لرجاله فأطاعوا ، ونبه على الآخرين فسمعوا ، وفهموا إرشادات سيد . وكيف سيمسكون بالحبال ، بعضهم سيلف الحبل على وسطه ، والآخرون سيلفون الحبال على أياديهم ، ويشدون ، حالا ، وقبل

آذان الظهر .

ـ هيلا . . هوب .

كأن الدقيقة صارت دهرا . يارب . . ماذا ياسيد لو لم يتزحزح البيت . نظر خلفه للذين يشدون الحبال .

ـ هيلا هوب .

من أين جاء كل هؤلاء . . رجال وصبيان ونسوة . الله يرحمك يازينهم . نظر خلفه ، صرخ ، كأنه يحذرهم .

ـ هوب .

وبشدة قوية حازمة تحرك البيت ، حركة خفيفة مهزوزة ، على أثرها قفز فأر ، وقفز ديك قد اختبأ فى جرة فارغة . كما أن البرص هرولت ودخلت بين الشقوق ، هزة خفيفة على إثرها طارت أربع يمامات فى الاتجاهات الأربع للدنيا . بينما سيد يصرخ :

ـ ابعدوا عن الجنينة . . احذروا الجنينة .

ويشدون بحذر شديد حتى يتجنبوا الجنينة ، وزرعها الذى لا يرون فيه أية فائدة ، ولكن هكذا « كامل » لا يرُد له طلباً ، وسيد المحبوب لابد من مساعدته ، لا يكف سيد عن الملاحظات ، والتنبيه ، والتعليق . .

ـ على مهل ـ على مهل ـ شد ياشيخ رجب

ـ يامعلم داود . . أبعد هذا الحجر ياعباس . .

ياكامل ياكامل . . اسند مع رجالك البيت ، واترك لنا الشد .

وكانت جميلة تحت شجرة التوت لا تصدق . . كان نائما يرتجف منذ ساعات . . تفرح به وتخاف عليه وتخاف على أولادها . . يفعل ما يريد ، قالت لنفسها :

يأخذ أوامره من تحت الأرض . . والنبى . . ومن جعل النبى نبيا يأخذ أوامره من تحت الأرض .

وتحول جهد الرجال إلى غناء يساندهم ، وكلما قطعوا مسافة ازداد إصرارهم ، وفرحوا بانجازهم كان الرجال مندهشين من الفكرة ، فرحين بها وبتحققها . جرى سيد ، وقف فى انتشاء . وقف فى المكان المحدد وقال :

ـ هنا . . هنا يارجال .

وصلوا بالبيت للمكان الذى اختاره . قعد الرجال فى أماكنهم بلا ظل ، بينما جرى كامل إلى زوج أخيه وحمل معها الأكل للرجال والقلل الفخار المملوءة بالماء المبترد . والفاكهة . افترشوا الأرض ، وجلس الجميع يأكلون ويباركون لسيد ، وكان بعضهم يستغرب فى نفسه من هذا المجنون الذى اختار الخلاء مكانا لبيته بين النهر رفيق

الجنيات ، وجسر الدلتا الذى لا يكف عفريته عن الكح . وسيد يعرف . يعرف أنهم يسخرون . لكنه شكرهم ، وشد على أياديهم ، احتضن كامل وقال له :

ـ لا غنى عنك . . نحن إخوة

وسهر الجميع جميلة وعباس وكامل وأبو سعدة ومحمود يضعون الدولاب فى مكانه ، والسرير ، والكتب . حتى أذن الفجر ، وارتمت جميلة بين العيال ، ونامت . ومضى أبو سعدة إلى بيته ، وشخر عباس فى ركنه ، بينما كامل عبر الجسر بعد تردد ليذهب لينام فى حضن خديجة قبل أن يدركها الصباح فيكون اليوم أسود . بينما خرج سيد ومشى إلى النهر . لم يتحسر على مكان بيته القديم ، وإنما ابتسامة مريرة استسلم لها وجهه عندما رأى الجنينة وحيدة مشوهة ، متربة . فكر ، وقال لنفسه المتعبة :

علىّ أنا الجنينة . . سأحملها شجرة شجرة . . زهرة زهرة . . حفنة طين بحفنة طين . . البنسيانا . . والتمرحنة والدفلى والكمون . .

كان للنهر لون الرصاص الثقيل ، انحنى والتقط حجرا ، ضرب به النهر ، كبرت الدوائر واختفت ، ولم يطلع صياد ، ولم ير بغلة . ورجع وفى عينيه شمس الصباح الشرقية ، بينما النهر يأخذ لون الفضة .

ـ ٨ ـ

بعد سبعة أيام تعرض فيها البيت للشمس والهواء ، جف الطين ، ونشف ، بل وتشققت بعض الجدران ، مشى بأصبعه على الشروخ ، طبطب سيد على البيت ، قال : تشققات سطحية . . إنه الطين حين ينشف .

ولم يكف لحظة واحدة عن التفكير فى مستقبل البيت . وعندما ضحك منه « أبو سعدة » وقال له :

ـ ياشيخ سيد . . هل هذه الأرض ليس لها صاحب . . هل يمكن لأى أحد أن يبنى فى أى مكان ؟

وكان سيد يدخن سيجارته ، وما كان أحد قد تعود على رؤيته يدخن ، قال بعد نفس طويل :

ـ لها صاحب ياأبا سعدة . . الحكومة .

ضحك أبو سعده ، وقال :

ـ الحكومة أم الانجليز ؟

قال سيد :

ـ أى حكومة . . وسأذهب للبلدية وسيأتى المهندس ، وسأسجل المكان باسمى .

قال أبو سعدة :

ـ عموما مبروك . . موقع البيت عظيم . . بحرى وشرقى .

ركن سيد رأسه لشوال الأذرة وقال :

ـ كل الجهات ياأبا سعدة . . كل الجهات . ثم اعتدل وقال ، كأنما تذكر فجأة :

ـ أبو سعدة ـ أريدك غدا . . ضرورى .

وفى شروق اليوم التالى كان سيد يشق طريقه حتى الحديقة ، ويعود إلى بيته الجديد ، وفى كل مرة يرجع بشجيرة صغيرة ، أو عود من الفل ، وحين استيقظ محمد وعلية وعمر جروا وراء الأب ، وراحوا جميعا ينقلون أشجار الحديقة ، شجرة شجرة ، وزهرة زهرة ، وزرعة زرعة ، كان سيد يروح ويجىء بمهل وتؤدة ، يحتضن زرعه كطفلة ، لكنه لم يكن كعادته مجنونا بالعمل ، متحمسا لانجازه ، وسألته جميلة التى كانت تبنى الفرن

بكتل الطين الطرية ، سألته :

مـاذا بـك يـاسيـد . . ليست عـادتـك . . أراك مهمومـا .

ابتسم سيد ، وقال :

ـ أفكر فى شىء ما .

قالت جميلة :

ـ قل لى .

وقف ، وداس برجله على الفأس . وسألها :

ـ سننقل الحديقة . . أليس كذلك ؟

صاح « أبو سعدة » من بعيد :

ـ الله الله . . تنقل الحديقة . . ياشيخ جن . . لماذا لم تنتظرنى إذن ؟

وسلم على جميلة ، وقال لسيد :

ـ لو قلت لى لأحضرت أحدا معنا .

رد سيد

ـ لا . . لا نـريـد أحـدا . . كنت أقـول لجميلة سننقل الحديقة .

قال أبو سعدة :

ـ كما أرى .

قال سيد :

ـ نعم . . ولكن كيف سنروى الحديقة ؟ ضحك أبو سعدة ضحكة عالية ترج الفضاء :

ـ نروى الحديقة بالماء يارجل .

قال سيد بغضب :

ـ أى ماء ؟ نحن نملأ الزير بالماء لنشرب .

سكتوا جميعا . فابتسم سيد ، وبانت أسنانه الجميلة ، وقال :

ـ هذه هى المشكلة التى أفكر فيها منذ أسبوع ـ وبالأمس فقط وجدت حلا .

قالا معا .

ـ ماهو ؟

قال سيد :

ـ بعد أن ننقل الحديقة أمام البيت ، وأسورها بفروع الشجر ، والأخشاب ، سأحفر قناة صغيرة من النهر إلى الحديقة .

انتفض أبو سعدة ، وانزعج ، وأشاح بيده :

ـ هلوثة ـ ستشق نهرا آخر !

قال سيد بعزم :

ـ بالضبط .

وانتهى اليوم مثل اسبوع كامل مرهقا ومتعبا . كان فى الليل ينام كجثة ليس سوى النفس نقل الحديقة كما تخيل تماما . هنا شجرة التمرحنة ، وهنا الدفلى ، وهنا الكمون ، والنعناع ، والعتر ، وكل الزهور ، وكانت مطيعة خضراء فى يده ، وكلما زرع شجرة فى مكانها ربت عليها . بل وقبل التمرحنة ، وهمس لها :

ـ لعله يجىء ، ليجلس فوقك .

اشعلت جميلة وابور الجاز ووضعت فوقه براد الشاى التاسع فى هذا اليوم الذى سوف تغرب شمسه ، لف أبو سعدة سيجارته ، وقبل إشعاله رأى ابنه « محمودا » يأتى حافياً مسرعاً ، لا هثاً ، يصرخ بصوت مسرسع :

ـ أبى . . أبى ـ الجاموسة تلد .

نط « أبو سعدة » من مكانه ووقعت علبة سجائره والكبريت ، وهب سيد كالملسوع ، وحروا فى لحظة واحدة ، فيما أخذت جميله « علية » فى حضنها .

وكان الثلاثة يجرون ، يقطعون الخلاء ، يتخطون الجسر ، ويصعدون للحلو ، خلف الجامع ، يرقد البيت مثل كهف مظلم ، لا يكاد المصباح نمره خمسة ينير المكان . سيد سبق أبو سعدة ، وهجم على البيت داس على قدم العجوز القاعدة على عتبة الباب ، ودخل

الزريبة ، لمح فى الضوء الكابى ، الجاموسة وهى تدور وتلف ، زعق .

ـ هات مصابيح ياأبوسعدة .

وقفت « هدية » زوجة أبى سعدة بمصباح ، وابنت ، وابنته بمصباح ، وحماته بمصباح . بينما الأب العجوز يقرأ القرآن بصوت مسموع . قال أبو سعدة :

ـ حوافر العجل ظهرت .

وقد بدت بالفعل الحوافر الصغيرة الدقيقة . وبسرعة مد « سيد » يديه ، وأدخلها فى الدفء المبتل لتنزلق بين يديه رأس العجل والقدمان الأماميتان ، ونزل العجل كالفرح فى الزريبة ، وزغردت « هدية » ، بينما جلباب سيد غرقان ومبتل ، والزريبة بأكملها قد تحولت إلى بحيرة صغير .

قال أبو سعدة بامتنان :

ـ ماذا أفعل لك ياسيد .

جلس « سيد » فوق شوال تبن ، وقال :

ـ شاى . . اعمل شاى .

فى الصباح نهض سيد من نومه وكانت الشمس ساطعة ، وقال لجميلة .

ـ تصورى ياجميلة طول الليل أرى فى منامى هذا

العجل الجميل كالطفل . . وأخذت ألعب مع العجل . . يجرى منى وأجرى منه . . حتى دخل بين أشجار كثيفة .

سكت سيد بحزن مباغت ، وقال :

ـ و . . كأنه . . ضاع منى .

ضحكت جميلة وهى تقول :

ـ فرحت بعجل أبى سعدة . . فحلمت به .

أكل اللقمة ، وشرب الشاى . وحمل الفأس وخرج وقف وظهره للبيت تماما ، ومن أمام باب البيت مشى بخطى واسعة منتظمة مستقيمة حتى وصل لشط النهر . وضرب بفأسه حافة الشاطىء . ثم ألقى نظرة على البيت ، وقال :

ـ هكذا تبدأ القناة .

وضرب ضربته الأولى . وبدأ فى الحفر وبعمق ، وكلما ندت الأرض بالبلل فرح ، وضرب بحماسه ، وما أن انبثقت أول جرعة ماء فى الأرض حتى هتف :

ـ هو النهر .

أسبوع كامل ، ظل يعمل ويحفر ويتعب ، يتابع الشمس والريح ، يحمل الفأس و« الكوريك » ، يرمى التراب على الجانبين ، ويحفر بعمق ، تغوص القدمان فى

ماء النهر الذى تسرب رويدا رويدا داخل القناة . فرح بالماء وغسل وجهه وشعره فى اليوم الأخير . واندفعت المياه فى مجراها حتى زحفت فى المجرى الذى صنعه بشكل فاتن حول أشجاره وزهوره ، تأمل محاسن الأرض وخيرها ، وقال لنفسه :

إن الطبيعة غنية وطيبة ولسوف تعطينى ، ما أرجوه وما أحلم به .

وذات مرة قال لأبى سعدة :

ـ ثمّ إننى أجمّل الأرض أيضا .

وكان وسواسه لايكف ، ينهض ليراقب تدفق المياه ، جدران البيت ، اخضرار أوراق الشجر ، وكان ينهض جسر الدلتا ويصعد المنحدر ليصل إلى المدينة ذات الشوارع الضيقة ، ويشم رائحة كلور أصباغ القماش ، ورائحة روث البهائم والمياه العطنة ، ويدخل حارتهم السد . تكبس على صدره بضيقها ، واتساخها ، يذهب إلى الصهاريج ، الميدان الواسع ، والصهاريج العالية العالية ، يتأملها باعجاب ، ويحلم لو صعد لهذا العلم الصفيح الذى لا يرفرف فوقها . ولكنه يرجع بفرح لأشجاره ومكانه الواسع ونهره الدافق ، هاهى الأشجار تهتز فى ربيع ليس مثله ربيع ، والزوجة الحامل على وشك

الوضع . وهاهو يـذهب لدكـان أبيه ، يقـطع اللحم ، ويبيع ، ويأخذ القروش القليلة .

أشعل المصباح نمرة عشرة ، وقال :

ـ الإضاءة ضعيفة .

ونام على ظهره ، وفكر فى « الكلوب » . هم قبل أن يهرب جمال الفكرة ، دس قدميه فى الحذاء . أغلق الباب وهو يقول :

ـ راجع حالا .

ورجع بعد وقت حاملاً « الكلوب » ، التف العيال حوله ، وجميلة ، وضع « الكلوب » فوق تربيزة خشبية ، أشعله ، بهر العيال . قال سيد :

ـ أصبحنا فى ضوء النهار ونحن فى عز الليل . تحلق الأولاد كالفراشات حول المصباح ، وجميلة تفرح عيناها بالضوء الباهر ، لكنها تقول فى نفسها :

ماذا فى رأسك ياسيد ؟

هى تعرف أن كل خطواته للأمام ، وبقدر ما تتعب من أحلامه تنتظرها وبعد ذلك جاء بكرسى ومنضـدة ، وبالقرب من الكلوب جلس ، وأشعل سيجارته وفكر ،

ورسم وجوها لا يعرفها فيها قبح ما ، وأنوف غليظة وآذان غليظة ، فمزق الورق . وفكر ، ورمى بأوراقه وأقلامه الملونة . وفكر . . وشرب الشاى الرابع ، ثم شد ورقة نظيفة لامعة بيضاء مصقولة ، وبدأ يرسم ، بدقة بدأ يرسم أحمد عرابى . جميلة حفظت شكل أحمد عرابى من رسم وخطوط سيد ، أحمد عرابى العجوز يبتسم هذه المرة ، لم يرسمه سيد عجوزا مثل كل مرة . ثم رسم مصطفى كامل ووراءه برج إيفل ، سألته زوجته التى لم تر مثل هذا الرسم وراء مصطفى كامل من قبل . مشيرة باصبعها بخوف أن تلمس اصبعها اللوحة :

ــ ما هذا ؟

فقال لها وهو يشرح بفرح فنان :

ــ برج باريس مصطفى كامل كان باريس ياجميلة ولكن أليس شكله جميلا ؟ .

وأشعل سيجارته الثانية والثالثة والرابعة ، وكانت تلك الليلة أولى لياليه فى إدمان السجائر ، ورسم « سعد زغلول » . وفى آخر الليل والجميع نيام رسم بمزاج معتدل وبهدوء امرأة عارية بشعر طويل ونهدين عاريين كأشهى ما تكون فاكهة ثم أنهى المرأة بذيل كسمكة وكتب تحتها « جنية البحر » . ونام .

فى ظهيرة اليوم التالى ، حمل سيد رسومه تحت إبطه ملفوفة بجريدة الأهرام صعد المنحدر إلى المدينة ، شق شارع العباس بسرعة من يسابق خطواته ، لم يسمع صوت الباعة ، ولم يرم السلام على الجالسين بالمقاهى ، شق طريقه بين ازدحام المكان بالحناطير وعربات الكارو ، وفرشات الخضار . مر على دكاكين الخياطين ، فأسرع الخطى حتى نهاية شارع عباس حيث يمتد النهر الكبير بالعرض . من وقف على الكوبرى الكبير ، التقط أنفاسه . وأخذ يحكى لنفسه :

هذا كوبرى جميل . . أمامه المدينة بشوارعها الرفيعة وحواريها الضيقة ، وخلفه ليس سوى دار السينما ، ومحطة السكة الحديد ومكتب البريد ، ثم المصنع الكبير الذى ينحت بجواره الشوارع والسكك ويقيم البيوت

ثم عبره .

ودخل تحت الكوبرى السفلى ، وأبطأ خطوه . هو يحب الكبارى والأنفاق والأنهار والاشجار ، والقطار المسافر . ويبتهج ، ترك الكوبرى السفلى وراءه ، وأتجه إليه . . إلى المصنع ، قال لنفسه :

المصنع الكبير ، الغول الذى أكل النول

والصنايعية .

هرش رأسه ، أكمل مع نفسه :

ـ وليكن غولا . . المكان الذى يقذف مئات الأمتار فى ساعة ، أم يد المعلمين التى تنهد فى صنع متر ؟ . أم صدورهم التى يضربها السل فى أماكنهم الرطبة المظلمة . بص فى ساعته . كان ينتظر خروج وردية العمال . ما زال هناك بعض الوقت . جلس على مقهى لبوابة المصنع الكبير ، تضاحك مع صبى المقهى ، شرب البانسون والشاى والقهوة . جاء صاحب المقهى ورحب به ، اقتنص سيد لحظته وقال :

ـ لعلك يامعلم لا ترفض أن أجلس بجوارك هنا ، وأعرض هذه الرسوم على هذا الكرسى وبجواره وتحته . . أكل عيش ، وهذا سيجلب لك الزبائن أيضا ضحك المعلم وقال :

ـ يارجل لم تأت فى جمل . . اسمى المعلم سلامة .

ربت سيد على ظهر المعلم سلامة وقال بوده المعهود :

ـ وأنا اسمى سيد .

بعد قليل ستصفر الصفارة .

وعندما كانت تصفر صافرة المصنع فى ذلك الزمان

كانت ترج المدينة كلها ، الجميع ينظرون فى ساعاتهم ، والزوجات تجهزن الطعام والأولاد يجرون فى الشوارع ليغسلوا أرجلهم الحافية خوفا من آبائهم ، عندما تصفر الصافرة تبدأ حناجر الباعة فى الزعيق ، تنتفض منهم العروق ، يبدأون فى جذب العمال لشراء الخضروات والفاكهة والفانلات الداخلية ، وزجاجات العطر الرخيصة ، عندما تصفر الصافرة يقف الحاوى فوق كنبة الحنطور المكشوف ويلعب بألوانه ، ويجرى عسكرى المرور ليقف على الكوبرى ، ويدخل السينما رواد حفلة ٣ ، تصفر الصافرة فيكون توقيت جديد ومرحلة جديدة ، ويكون الضابط النوبتجى فى هذه اللحظة فى المركز وراء مكتبه يشرب القهوة المضبوط من يد « عبادى » ، انتظارا لحالات السرقة والمشاجرة . تصحو المدينة عند الصافرة ، وينطلق العمال المحتشدون للخروج فى لحظة واحدة كتلة بشرية متوحدة ، بملامحهم الفلاحية وروحهم الريفية ، يتجهون للقطار أو للدراجات بشوق ولهفة ليعودوا لديارهم فى أرياف المحلة .

اهتز جسد « سيد » الذى شعر بالضآلة رغما عنه ، فشد قامته . صافرة المصنع هزته هزا غير متوقع ، لكنه تماسك ، ونهض ، وكاد أن يقول مثل الباعة ويزعق صور

أحمد عرابى ومصطفى كامل . لكنه سكت . صمت . نشف ريقه . لن يكون بائعا جوالا . إنه فنان . وارتاح قليلا وهدأت نفسه . سيعرض رسومه لمن يحب الرسوم ، وجلس بهدوء وثقة بجوار رسومه . ظل صامتا ، شاخصا بنظره للأمام ، ورأى عمال المصنع بالوجوه المتشابهة ، ملامح فقيرة ومريضة ومهزوزة ، لكنهم بشكل ما فرحون ، وأحيانا يمشون بزهو ، ويقولون كلمة « عمال » كأنها الأحرف الأولى للحياة . يقول الولد : أنا عامل ، ويقول الرجل : أنا عامل كأنما يتهجون كلمة جديدة فى تاريخ نطقهم . قال سيد لنفسه ، وسعادة بطعم غريب تغمره :

ـ عمال ـ مثل عمال روسيا . . وعمال شارلى شابلن . وقف بعضهم يتفرج ، وهذا البعض عمل ازدحاما ، اشرأبوا برؤسهم ، وتحاملوا على بعضهم ليتفرجوا ، وبعضهم حشر رأسه من بين السيقان والأرجل ، فكان سيد يقول كالمعلم :

أحمد عرابى ـ مصطفى كامل . . جنية البحر .

باع كل الصور فى دقائق ، لكنهم تخاطفوا جنية البحر ، ومن أخذها جرى بها كالرهوان . وضع سيد

نقوده فى جيبه ونهض ، وأعطى لسلامة قرش صاغ أحمر منقوش ، وقال له سلامة :

ـ سأنتظرك ياسيد .

ومشى بسعادة وحزن ، ضبط نفسه سعيدا وحزينا ، هكذا فجأة اهتز سيد ، وحاور نفسه كثيرا ، وحاول أن يدرك سر ما يحسه بالضبط ، وعبر الكوبرى ، ومشى فى شارع العباسى ، الشارع الرئيسى بالمدينة ، ومشى على مهل يتفرج على المحلات والمعروض بها من خلال الزجاج من سنوات لم يفعل ذلك ، وقف يتفرج مثل ولد ووقف طويلا أمام صيدلية ، تمنى لو يدخل ويحاور الطبيب ، ويكلمه عن الدواء المصنع ودواء تذكرة داود ، وقف طويلا أمام الصيدلية وأحس باحترام تجاهها ، ود لو ينحنى للطبيب ، وأفاق حين سمع صوت عبد الوهاب يغنى ، اتجه لمحل كهربائيات فى الواجهة مصابيح كهربية بأشكال مختلفة ، ووقف مشدوهاً أمام الأشكال المختلفة للمذياع ، كبير وصغير ، هذا الصندوق الصغير منه تسمع العالم يغنيك عن الطائرة ، فيطير إليك كل شىء ، إلى سمعك تحسس سيد جيبه ، بص للمذياع ، بحلق فى المذياع ، مد يده فى جيبه ، أخرج كل النقود وعدها .

وضع يديه على زجاج الواجهة ، المذياع . . مذياع بالكهرباء ، ومذياع بحجارة البطارية . وحط عينه على راديو أنيق له عين سحرية تضىء باللون الأخضر حين يعمل ، خاف سيد أن يموت من الفرحة حمل الراديو بين يديه . أمنية لم يخطط لها سيد كثيرا ، لذلك كان المذياع كالحلم الجنين الذى ينتظره حياة طويلة ، فاحتضنه ومضى تاركا المدينة وراء ظهره .

- ٩ -

« ياحبيبى . . لك روحى . .
لك ما شئت وأكثر . .
إن روحى . . »

هى الشمس نعمة ، يعرف سيد . ابتسم حين فاجئته رائحة الورد البلدى . مدد رجليه على الحصيرة اللامعة ، أخذ طفله الصغير يلعب فى شعر رجله الكثيف . لعب الرجل بيد حانية فى شعر ابنه . وضعت جميلة مولودها فى فرشته فى حضن زرع النعناع ، وللمرة العاشرة جرت جميلة وراء أرنب ، وما زال الأرنب يجرى من بين شجرة لأخرى . لم يشأ سيد أن يساعد جميلة . فى هذا الجرى رياضة ، وقال لها كثيرا لا تجرى فى الخلاء حاصرى الدجاجة والأرنب فى مكان ضيق . « لمَّا أنت

ناوى تغيب على طول مش كنت آخر مرة تقول »

صوت المذياع يأتيه كالخيال ، وهو يتخيل « عبد الوهاب » وطربوشه وابتسامته التى لا تبرح وجهه ويديه فى جيبيه . افزع « سيد » للحظة من مرور رجل بدراجة بخارية لها صوت مرتفع ، هبَّ أن يقف فى طريقه . هذا رجل مزعج لسيد وجميلة وللنهر وللسمك وللجنية هناك وربما أيضا للصياد فوق بغلته رمت جميلة بالأرنب المذبوح ، ومسحت الدم الساخن الذى على السكين بذيل جلبابها ، وقالت لهم :

ستأكلون ملوخية بالأرانب .

أخيرا الراحة . .

هكذا قال سيد لنفسه .

هاهو البيت الذى حلم به ، والشجيرات الصغيرة ، وجدول النهر يجرى هاهو وقضبان السكة الحديد وقطار الدلتا والعفريت الذى يكح ، هو وهم أصحاب .

أخيرا الراحة .

ماذا تطلب بعد ياسيد ؟ احتضن ابنته . لا شىء . وقبل أن يخرج سيجارته ليشعلها ويستمتع بها كما تخيل للحظة رأى « أبو سعدة » قادما يهرول على غير عادته ،

أنتفض قلب سيد . لعل مكروها أصاب « محمود » ، لعل الجاموسة ماتت ، لعله الوليد ، لعل بيته وقع فوق رأسه . كان يريد أن يخمن بسرعة وقبل أن يصله « أبو سعدة » لكنه نهض واقفا . انتترت البنت من جنبه . بادره قبل أن يقف :

ـ ماذا ياأبا سعدة .

قال أبو سعدة :

ـ الحق ياسيد ـ إنهم يبيعون الخندق .

دهش سيد ، وقال :

ـ يبيعون الخندق ! لمن . . الإنجليز أم الألمان ؟

قال أبو سعدة ، وقد رأى جميلة تتطلع الخبر :

ـ البلدية تبيع الخندق فى المزاد . . وقلت إن هذا شىء لا يفوتك .

سكت سيد . . لم يجب . فكر كثيرا فى لحظة وجيزة ، ثم قال بدهشة :

ـ الخندق .

وقف فجأة ، وقال :

ـ هات الحذاء ياجميلة .

وترك الولد والبنت والزوجة . لم يقل ماذا سيفعل .

تجاوز جسر الدلتا فكان فى المدينة بعد دقيقتين . جرى « عباس » إليه وكان بيده الكرباج وقال بفرح « طفل » :

ـ هل رأيت ياشيخ سيد . . الحرب انتهت ، والخندق سباع .

لمح « سيد » الزحام ، فاقترب ، رأى الخواجة بوجهه الأحمر ، وبنطلونه القصير وقبعته الكبيرة ، والعرق يبلل وجهه الأحمر ، لم يضايقه الخواجة ، ولكن ضايقه أنه لم يفهم لماذا يأتى الخواجة فى بيع الخندق المصرى ! ورأى الموظفين المصريين ، أحدهم بنظارة سوداء ذات إطار عريض ، والآخر بعين حولاء ويرتدى « جاكت » أسود مقلم بخطوط بيضاء ، وعلى رأسه طربوش متهالك . ورأى شابا نحيلا جالسا على كرسى وأمامه منضدة وأوراق وقلم كوبيا وعلبة سجائر . رأى كل هذا فى خطفة بصر واحدة ، ثم اكتشف أنه فى ازدحام ، والذى ضربه فى كتفه هو أخوه « كامل » .

قال له كامل :

ـ بلد فاضية . . اللمة على أى شىء . هرش سيد رأسه . ثم مال على « كامل » وهمس له :

ـ هل معك فلوس ؟

قال « كامل » :

ـ بالتأكيد معى .

قال سيد ، وهو شارد قليلا :

ـ إذن لا تفارقنى .

ثم دخل بين الزحام ، وبين الأصوات العالية والأنفاس اللافحة ورائحة العرق . لم يبد أى شىء . لكنهم جميعا يزعقون ، ويجهزون الأوراق ، ويعدون الشمسية ليقف تحتها الخواجة . دخل « سيد » فى الزحام ، فدخل « كامل » وراءه ، وحشر « كامل » فمه فى أذن « سيد » وسأل :

ـ ماذا تريد من الفلوس ؟

ثم أكمل ساخرا :

ـ أظن ستشترى الخندق !

قال سيد ، وكان قد وصل بجوار المنضدة ، قال بثقة :

ـ نعم . . سأشترى الخندق .

هتف « كامل » زاعقا :

ـ مجنون . . طول عمرك مجنون . . ماذا ستفعل

بالخندق . . أظن ستربى فيه العجول والدجاج . . أم ستحوله لمصنع لتحارب طلعت باشا حرب !

ولم ينتظر رد « سيد » بل تركه ، وأخذ يهلوس ، كمجنون من جنون أخيه . سكت « سيد » لم يعلق . نادى على « أبى سعدة » ، وهمس فى أذنه :

ـ هل ستنزل المزاد ؟

رد « أبو سعدة » حاسما أمره :

ـ لا لن أنزل . . فقط أخبرتك حتى لا تزعل ، ماذا سنفعل بخندق ياسيد ؟

وقف الأحول ، خبط على المنضدة أمام الشاب خبطات قوية ، وقال :

ياأهالى المحلة . . اسمعوا . . ياأهالى المحلة . . ستقوم البلاد باعلان المزاد الآن على الخندق . .

ومن يرسو عليه المزاد سيكون من نصيبه .

افتَّر ثغرُ « سيد » عن ابتسامة خفيفة لطيفة خبيثة فى آن . ودار فكره ورسى هو الآخر على الخندق . لن يشترى الهواء الفاسد داخله ، ولا بابه الحديدى !!

ضحك ، ثم ضحك أكثر عندما علت الهمهمات

والتساؤلات ، بل إن واحدة فلاحة تحمل على رأسها « مشنة » خضار ، صاحت بهم تحذرهم بصوتها المجلجل :

ـ سيضحكون عليكم . . سيسرقون فلوسكم ـ آه من الانجليز آه . .

ضحك « سيد » وقال لنفسه :

ـ سنرى من الذى سيضحك على الآخر ؟

هو أدرك أن الخواجة والموظفين غير واثقين من مشروعهم ، لأن الرجل الذى يرتدى الجلابية بجوارهم قال « بحماس مفتعل :

ـ أنا سأبدأ المزاد .

قال الخواجة :

ـ عفارم عفارم . . بكم ؟

قال ذو الجلباب :

ـ ثلاثة جنيهات .

صرخت الفلاحة :

ـ خرابى عليكم . . تبيعون التراب .

الآن تبدأ اللعبة ، تحسس جيبه الداخلى ، المحفظة فى مأمنها ، المحفظة البنية الجلدية ذات السوستة والجيوب . فى الجيوب أوراق باهتة ، وورقة بيضاء مدون بها رقم تليفون طبيب السلخانة ، ونقود . بالضبط أربعة جنيهات وخمسة وسبعون قرشا ونصف قرش وثلاثة ملاليم حمراء ، وقرش مخروم باهت من أيام السلطان حسين . لا يستعمله . تحسس الجيب الداخلى وقال لنفسه :

لن استعمل الملاليم الثلاثة . . . ولكن هل ستكفى الجنيهات الأربعة ؟ هرش مؤخرة رأسه ، وانتظر الذى قال بعد ذلك :

ـ ثلاثة جنيهات وربع .

ازداد الحشد . وارتفعت الهمهمات . كان المشهد جديدا . أهل المحلة يرون باعة الطيور والخضر والقلل القناوى ، ولكن باعة الخنادق ! وكل منهم يظن فى قرارة نفسه بأن الذى سيشترى هذا الطوب هو المغفل الحقيقى ، فأى معنى أن تشترى طوب الخندق ! هكذا قال الخواجة . إن الشراء هو شراء طوب الخندق فقط ، ليس الأرض ، ولا حتى باب الخندق الحديد ، ولا الماسورة التى تطل من أعلى الخندق كأنف معقوف . كاد الجميع أن

يضرب كفا بكف ، ما عدا « سيد » الذى نعب من التفكير ، وكان القرار الذى أخذه من لحظة هو القرار النهائى . ثلاثة جنيهات ونصف .

الخواجة والموظفون يعملون بانهماك شديد فى لا شىء . ازدادت حدة الشمس ، فخلع الخواجة القبعة مرات عديدة ولبسها ، واستعمل ذو الجاكت الأسود منديل الشاب النحيل عدة مرات . وكان ذلك يوم ثلاثاء بعيد . من بعده لم يذكر سوى بيوم بيع الخندق . ويوم بيع الخندق جرت بعض الأحداث التى تم التأريخ لها بيوم الخندق ، فالخواجة « يني » وقع ليلتها عقد بيع وابور الطحين لفؤاد سمعان ، وماتت فرس المعلم « عبد النبى » وبكى بجوارها كالمرأة . واشترى « عبده المصرى » بيت حماته الذى طردها منه فيما بعد ، وهرب « بدير » الشاب الوسيم من المحلة ـ وكان قد مر على جمهور الخندق ـ ولم يرجع حتى يومنا هذا .

ويوم الخندق وضعت « زينب العسكرى » توءمتين جميلتين ، وليلتها كان « فتحى » فى حضن « هندية » اللعوب التى أصرت أن تتزوجه فهرب منها بملابسه الداخلية ، وأصرت بعد ذلك أن ابنها « حامد » الوحيد

هـو ابن فتحى ، فطلق « فتحى » زوجتـه وتـرك أولاده وهندية ، ورحل إلى كفر بعيد وفتح دكـان تبغ . ويـوم الخندق . . هو اليوم الذى فيه اشترى « سيـد » الخندق ورسى عليه المزاد حين أفلس الجميع ، ولم يـزد أحد ، فتقدم منه الخواجة وأخرج « سيد » من جيبه القلم الكوبيا الذى يضارع قلم الموظف ، وقال :

ـ أربعة جنيهات ياخواجة . . وها قلمى حتى أوقع العقد .

قال الموظف :

ـ أربعة جنيهات . . من يزيد ؟

لا أحد . . لا أحد بعد سيد ، لأن لا أحـد يعرف ماذا يمكن أن يفعل به . خندق كبير وعريض مبنى بالطوب الأحمر . ماذا يمكن أن يفعل به ؟ قال الخواجة :

ـ من يزيد . . لا أحد .

ابتسم « سيد » ، تقدم ، ومد يده بالقلم الكوبيا ، ثم وقع عدة أوراق ، وأخذ نسخة منها ، وقال له الموظف الأحول :

ـ غدا تأتى للبلدية لدفع الرسوم لاستخراج أوراق

العقد .

قام الموظف ، وأخذ منديله ، ومسح الخواجة وجهه بمنديل أبيض ، وترك الرجل ذا الجلباب ، وبدأ الجميع فى الانصراف ، ولكن بدهشة ، قال أحدهم بسخرية :

ـ هيا يا عم سيد . . احمل الخندق على ظهرك .

ضحك « سيد » بصوت عال ، وقال يردد :

ـ لن أحمله على ظهرى . . سأحمله على عربة الشيخ رجب .

ثم مضى « سيد » ومن حوله البعض يسأله عن ماذا سيفعل بالخندق ، فقال مازحا :

ـ سأختبىء فيه وحدى فى الحرب القادمة .

وقفت « جميلة » أمامه ، بين الجمع ، وقد هرب دمها ، شدت طرحتها إلى رأسها ، وضربت صدرها بيد باردة ، وقالت :

ـ ماذا حدث ؟ ماذا ياسيد ؟ جريت . . ثم ماذا ؟ ماذا يفعل بالسيدة الطيبة ؟ أخذها تحت إبطه ، وأشار لها على الخندق قائلا :

ـ اشتريت هذا الخندق .

شهقت ، ونشف ريقها ، قالت :

ـ ياخراب . . سنترك دارنا ونقيم تحت الأرض !

يوم الخندق . هذا اليوم المشهود ، لم تحص كل الحكايات التى دارت فيه ، ولم يعرف أحد ماذا قرر « سيد » إلا حين قال : « أبو سعدة » لسيد :

ـ لن أمد يدى فى الأكل إلا إذا عرفت ماذا ستفعل بالخندق ؟ كانت جميلة قد أعدت لهما الأكل ، ولم تكف عن البكاء لحظة ، وكلما تيسر لها تسأل « أبو سعدة » بعينيها ماذا فى رأس سيد ؟ . أكل سيد بشهية ، ولكن أبو سعدة يستوقفه دائما . قال سيد :

ـ الأمر بسيط . . اشتريت الخندق لآخذ طوبه الأحمر وأبنى بيتى هذا بالطوب الأحمر .

قالت جميلة بعد أن توقفت عن صب الشاى :

ـ سنهدم البيت لنبنيه مرة ثانية !

أكمل هو بفرح كطفل :

ـ بالطوب الأحمر . . الطوب ياأبو سعدة . . لقد دخلنا زمن المدن .

بش وجه أبو سعدة ، وعلته سعادة غامرة ، وقال :

ـ قصر . . عصر القصور ياسيد . . ياشيخ

جن . . لتكن عمارة ياشيخ سيد تضرب عمارة الشيشينى
قال سيد :

ـ للشيخ رجب عربة كارو ، يجرها حصان قوى ـ عليها سأنقل الطوب من هناك لأحطه هنا . . كم سيأخذ فى النقلة الواحدة . . وكم ألف طوبة بالخندق . . هـذا لا أعرفه . . كم طوبة ياأبو سعدة ؟

ضحك أبو سعدة وقال بظرف :

ـ هات الطوب وأنا أعده .

وضحكا . ونهض أبو سعدة ليمضى ، وقال هامسا لسيد :

ـ الولد محمود يريد الزواج . . وأبو العروسة يريد المهر عشرة جنيهات . . هل رأيت آخر الزمان ؟

قال سيد وهو يشد على يدى أبى سعدة :

ـ هذا أول الزمان ياأبـو سعده . . أعـطه الورقـة ليتزوج ويعيش بعيدا عنك .

رمى أبو سعدة السلام ومضى . والغروب قد حط على الأشياء ، وثمـة برد ورطـوبة تجعـل الإنسان يـريد الدخول فورا إلى حجرته أو فى سريـره أو ينام فى حضن امرأته العـريانـة . والفكرة الأخيـرة هى التى أنعشته ،

فدخل وصفق الباب ، وقال لجميلة :

اخلعى هذا الثوب . . وتعالى ننام

ذهبت هى وغطت العيال ، وأطفأت نور المصباح ورجعت على أطراف أصابعها ، وخلعت جلبابها ، فبدت جمالا أبيض ، شدها من يديها فوقعت بصدرها السطرى فوق وجهه ، فقضم الثدى فانقلبت للناحية الأخرى تخلع بقية ملابسها . لكنه سمع دقة على الباب . . ودقة . . ودقة . نهض ، لبس جلبابه كيفما اتفق ، وهرول من الحجرة ، تاركا العريانة ، وأقفل باب الحجرة ، وفتح الباب الخارجى . شم رائحة التمرحنة . وجد الرجل الأسمر . تذكره على الفور ، هو الذى أخذ من قبل المائة جنيه لخاله . أدرك أن فى الأمر شيئا ، قال :

ـ تفضل .

قال الرجل الأسمر :

ـ شكرا . . فقط رسالة سريعه .

خوف ما حط فى صدر « سيد » . همس :

ـ تعال لتشرب الشاى أولا .

قال الرجل الأسمر بصوت متحشرج هزيل :

ـ البقية فى حياتك . . خالك مات .

شده من يده

ـ ادخل .

دخلا وراء الباب . سأله هامسا :

ـ أين ومتى وكيف ؟

قال الرجل الأسمر بصوت خافت ، واهن ، حزين :

ـ من شهر . . دخل معسكر الانجليز ، مسكوه ، فضرب القائد الانجليزى برجله ، أصابت رقبة الانجليزى ، ومات ، فضربوا خالك بالرصاص . . ورموه فى الجبل . . دفناه أيضا فى الجبل . . البقية فى حياتك .

هذا ما لم يضفه أحد إلى يوم الخندق . دخل سيد حجرته ، فوجد العريانة تحت الغطاء فى الانتظار ، خلع ملابسه بتؤدة ، وانزلق بجوارها ، دفن رأسه بين ثدييها ، ثم حل شعرها ، ولم ينم .

من حلم إلى حلم يمضى سيد ، من شقاء إلى شقاء ، وفى جلسته القرفصاء على عتبة البيت كاد رأسه ينفجر . الحكاية بسيطة . وقال لنفسه :

أهدم البيت الطينى . . وأبنيه بالطوب الأحمر طوب الخندق .

بحلق فى شجرة التمرحنة :

أين أنت أيها الصياد . . أنا فى انتظارك الآن . . فى حاجة مرُة إليك .

نطت العنزة أمامه ، ونط الجدى . . وجريا . وكانت المياه تجرى أيضا فى مجراها الصغير المحفور من النهر إلى الحديقة الصغيرة . أشعل سيجارة ، وكانت جميلة تنقى

القمح فى الغربال ، وحسبت فى ذهنها فترة الحمل ، بينما الوليد ما زال يرضع ، عرفت شهرها ويوم حملها ويوم وضعها ويوم تأكل الفراخ وتشرب الحلبة . ستلد مرة أخرى . . ما أن تهبط بطنها حتى ترتفع ، وسيد يحب العيال ، لا يزهق منهم ، ويحلم لكل عيل بشغلة . لمحت سيد سرحان فى ملكوت آخر ، أحس بعينيها فقام ، بجوار سور الحديقة الواطىء رص طوب الخندق منذ شهور . الطوب الحياة الجديدة ، الطوب الأحمر منه صنعوا خندقا ليمتلأ بالأنفاس الخائفة ، بينما سيد سيصنع منه بيتا للأنفاس المطمئنة . ارتاح قلبه .

فى أسبوعين هدم سيد وعباس وآخرون الخندق . بحذق ومهارة ، حافظ على الطوبة كأنها عينك ، هكذا طلب سيد ، طوبة طوبة حتى تُبنى من جديد ، وثلاثة أيام ورجب ينقل الطوب على عربته الكارو . قال لنفسه

ـ جازاهم الله كل خير .

أمسك طوبة بيد قوية ، وتمتم لنفسه :

ـ لابد من البناء . .

لا يمنعه سوى الفلوس . رمل وزلط ورجال . واللوحات ما عادت تكفى ، الغلاء يعم كل شىء ،

الخواجات يحكمون العالم ، ومن وراء بحر الظلمات يرسلون رسائلهم لينفذها الملك وأصحاب الإقطاعيات .

انتفض سيد . يكره الفلوس ، ويكره أن نقف فى طريقه . هب من جلسته ، زنق قدميه فى حذائه ، ومضى يجرى . لم يسمع جميلة وهى تنادى :

ـ سيد . . ياسيد .

ثم صرخت من ألم ما ، وحين همت من قعدتها أحست بالماء الدافىء يغمر أسفلها ، فنادت على أمها البعيدة :

ـ ياأمى . . ياأمى

فجرى الولد وجرت البنت ، وشعرت بصهد يخرج من النهر ، فيغمرها بخار الدنيا وتسقط ويدها تبحث عن سيد .

حين فتحت عيناها ، رأتهم جميعا الأم العجوز ، وبنات خالها الذى رباها ، و « ورمانة » زوجة أخيها وسرها ، يلتففن حولها فى فزع ، كانت كمية الماء الساخن تدفق ، وآلام الظهر تأخرت ، لكنها ـ يبدو حين اطمأنت

لوجودهن صرخت :

ـ ظهرى .

قالت الأم :

ـ لا تخافى ياجميلة . . إنها ولادة . . مثل كل ولاداتك السابقة .

جاء أبو سعدة يلهث ، ووراءه زوجته النحيفة كعود الذرة ، وسأل :

ـ أين سيد ؟ . . لا تخافى نحن معك .

قالت زوجته :

ـ أم وداد ستأتى حالا لتولدها . .

هل تم الطلق ؟

عرقت جميلة ، همست :

افتحوا الشباك .

وغمرتها رائحة التمرحنة ، ورأت سحبا كثيرة زرقاء تشقها يمامة . ودخلت أم وداد القابلة سمت بسم الله الرحمن الرحيم ، وتخطت العتبة برجلها اليمنى ، وخرج أبو سعدة ، وازدحمت الحجرة بالنسوة ، بينما أبو سعدة يتابع الشجيرات الصغيرة ويشم زهرة الدفلى التى لها

رائحة اليانسون ، والنعناع الذى يتكاثر فى المكان ، والريحان القدسى ، وشجيرة اللويزا ذات الرائحة الفذة المحببة ، غفا .

عندما رجع سيد كانت رأس أبو سعدة مدلاة على صدره ، وشخيره العالى مثل شخص يقاوم الاختناق ، ارتعد سيد ، فملك أبا سعدة من طوق جلبابه ، وهزه كأنها الهزة الأخيرة للعالم ، وهو يشخط بحسم :

ـ أبو سعدة

فقام أبو سعدة مرعوبا ، وقبل أن يسأل من ؟ سأل سيد :

ـ ماذا حدث ؟

أشار أبو سعدة للشباك ، فسمع سيد الزغرودة الأولى ، وصوت البكاء الأول ، فاهتز فرحا ، وجرى للحجرة . قالت أم وداد القابلة :

ـ ولد .

تسمر سيد على العتبة وابتسم فبانت أسنانه البيضاء ، وتحسسّ حافظته التى عاد بها بعد أن أتى بالفلوس . وصعدت البنت فوق السطح وأمسكت بالدجاجة وأمسكت بالديك ، وأمسكت بالأرنب ، ولمت

البيض فى سلة الخوص المتآكلة من أطرافها ، وعلى درجات السلم الخشبى زعقت على أبيها الذى طلع وأخذ الدجاجة والديك والأرنب والبيض فى حجره ، وحين انزلقت قدمه من على الدرجة الأخيرة ، ضحك أبو سعدة حتى استلقى على قفاه ، ضحك سيد وهو يقول :

ـ خير والله خير

بينما طارت الدجاجة وطار الديك وقفز الأرنب ، وأغرق محتوى البيض جلبابه .

جلس سيد وأبو سعدة تحت شجرة البنسيانا ، وكانا يشربان الشاى ، وقال سيد :

ـ عباس أعطانى الفلوس . . تصور ياأبا سعدة . . الحنطور يجعلك ملك فى هذا الزمان !! وسنشترى الرمل والزلط والأسمنت . . وأبو العبد سوف يقوم بالبناء . . لابد أن تعجل ياأبا سعدة بأن تبنى بجوارى . . هل سمعت بأنهم سيخلعون جسر الدلتا . . سنتخلص منها أخيرا ، ومن دخانها الأسود .

زعل أبو سعدة بشدة وقال :

ـ معقول . . قطار الدلتا !! كيف سنروح ونرجع . .

ياه . . لقد ولدت ورأيتها .

نهره سيد

ياأبا سعدة . . لا يجب أن تتحول الألفة إلى سجن .

وعرف أن أبا سعدة لن يفهم ، فقال :

ـ يعنى . . لابد من التجديد . . سيكون هنا الأتوبيس . . وربما الترام . . ألم تر ترام الإسكندرية . . إنه مثل قطار الدلتا لكنه جميل ونظيف وبلا دخان . . تعالى معى نطلع حتى الوراقة ، سأشترى الحلبة والموغات والسكر . . ألم تر جميلة تأتى بالعيال . وتنفس سيد بعمق ، وربما شعر بالطمأنينة .

صعدا المزلقان ، ومرا على حمام البلدية ، ولكن سيد توقف فجأة وقال لأبى سعدة :

ـ ألا يصح أن أمر على أبى وأخبره بحفيده الجديد ؟

أومأ أبو سعدة برأسه :

ـ يصح .

ومشى معه أبو سعده ، لأنه رأى أن هذا عين العقل .

ما أن رأى الحارة من بعيد حتى لمح بعض الزينة ، والأعلام الخضراء التى يتوسطها الهلال الأبيض ترفرف .

وسأله نفسه :

ترى فرح من ؟

وكان يتكلم مع أبا سعدة فى الطريق عن أهمية الشعير عندما ينقع فى الماء ، وفائدة هـذا للكلى ، التى تؤلم أبـا سعدة فى كل برد ، وعندما دخل الحارة رأى الزينة تتركز عـلى منزل أبيـه ، وواجهة الـدار مطلاه بـالجير الأبيض الـزاهى اللون ، وقـد رُسم عـلى الحـائط الكعبـة بلون أسـود ، وطائـرة حمراء ونجمـة خضـراء . وبخط كبـير عـريض لم يعجب سيـد مكتـوب « حـج مبـرور وذنب مغفـور » و « ألف مبروك يـاحاجـة » و « حمـدا لله عـلى السلامة ياحاجة أم سيد » .

همس بدهشة :

أمى !!

دخل الدار المزدحمة ، خديجة بفستان أحمر لامـع ، وبجمال أخاذ تضع الطبلة تحت ذراعها وتغنى ويرد عليها الصبية والبنات والنسوة . حين التقت عيناها بعينى سيد لم تسكت ، بل قالت :

ــ ألف مبروك ياسيدى . . الحاجة راجعة اليوم .

ورأى أكواب الشربات ، والزغاريد لا تتوقف . شد

« سيد » أبا سعدة ودخلا حجرة الرجال التى تتوسط الصالة بجوار دورة المياه ، كان أبوه جالسا فى الوسط ، قال وهو يضحك :

ـ تعال ياسيد .

قام « كامل » وقدم الكرسى المنجد الأحمر لسيد ، وجلس أبو سعدة على كرسى آخر . هنأ الرجال سيد بسلامة عودة الحاجة . أدمع سيد ، مسح سيد دمعته التى كرهها بمنديله المحلاوى الكبير . هكذا الأب ينسى سيد ، أليس سيد ابنها أيضا ؟ . آخر من يعرف ، حتى عودة أمه من الحجاز جعلوها سرا ، بص فى عينى أبيه الذى فهم فنهض وشد سيد من يده ، وقال بلهجة كاذبة :

ـ أنت مشغول ياسيد ، لم أرض إزعاجك . . كنت فقط منتظرا عودتها لأرسل لك . .
أين جميلة ؟

قال سيد بصوت مخنوق :

ـ جميلة ولدت اليوم طفلا جديدا .

قال الأب :

ـ ألف مبروك .

ووضع يده فى جيبه الداخلى وأخرج ساعته ، وهو يكمل :

ـ مبروك . . ننتظر الحاجة منذ ثلاثة أيام . . أخوالك كلهم فى السويس ينتظرونها . . وأنا أنتظرها هنا . . لا تزعل ياسيد .

ثم مال سيد ، وهمس :

ـ خذ علبة السجائر هذه ووزع على الرجال . كان الضجيج عاليا ، وضربات الطبلة مرتفعة . انتصف النهار ، وتناولوا الغداء . وقرر سيد أن يرجع لزوجته ليطمئن عليها ، على أن يرجع فى المساء .

رجع صامتا ، حاول أبو سعدة أن يتكلم معه عبثا ، ومضى أبو سعدة ، ودخل سيد الدار ، شم رائحة الحلبة التى لم يشترها ، ورائحة الموغات الذى نسى أن يشتريه . نظرت له جميلة بأسى وحزن ، أيضا بص لها بحزن ولم ينبس . جلس فى ركن بعيد دافىء ، وركن برأسه للحائط ، وسأله نفسه بألم :

لماذا ؟

جاء عمر ونام برأسه على فخذ أبيه ثم تمدد ، لعب سيد بأصابعه برقة بالغة فى شعره حتى نام ، حمله فى

حضنه ، ومرة أخرى دمعت عيناه ، فدهش هو نفسه لذلك . لماذا البكاء اليوم ؟ وأى رهافة حطت عليه ؟! لا يحب هذا . قام على مهل ووضع عمر فوق الحمل المفروش على الأرض ، وغطاه ، وخرج ، والنسوة كن جالسات متحلقات حول وابور الجاز الذى يشع دفئا ، وكن يتحدثن عن العمال الشركاوية الذين يسكنون البيوت المحلاوية ، وقلن إن العمال يتزوجون الآن المحلاويات ، وكن يتحدثن بصوت هامس عن الغلاء والدنيا التى لم تعد دنيا . بينما جميلة قلقت على سيد ، هى تحفظه ، وهو اليوم ليس اعتياديا ، وابتسمت ابتسامة خفيفة لم يرها أحد حين تصورت أنه ربما يعد الطوب طوبة طوبة ، ولعله يفكر كيف سيبنى البيت ؟ . وبالفعل عندما اتجه فى المساء لحارة أبيه كان يفكر كيف سيبنى البيت ؟ وجميلة قد وضعت وأمه الحاجة ستعود ، وحين دخل الحارة وحده فى ذلك المساء صدم مرة ثانية حين سمع الزغاريد عالية عالية و« السوبيا » توزع فى الحارة ، وسمع العيال وهى تقول :

ـ الحاجة رجعت وتوزع علينا الحلوى .

مرة ثانية ياأبى . . هكذا قال . ودخل البيت ، وبين الزحام شق طريقه إلى مندرة أمه التى كانت مثل عروس

بيضاء ، وبديعة الشكل ، احتضنها بقوة فاحتضنته بقوة أيضا :

ـ مبروك ياحاجة . . ألف مبروك .

قالت :

ـ عقبالك ياسيد . . عقبالك

جلس بجوار الحاجة مع النسوة . لم يفارقها . غمره الفرح فجأة ، وبعد قليل سألها :

ـ احكى لى ياأمى عن الحجاز .

فأنصت الجميع وقالت :

ـ ماذا سأحكى ياابنى . . شفت الكعبة ومسجد سيدنا النبى ، شعرك يشيب عندما تدخل هذه الأمكنة ويبكى منك القلب والعين . . وعدك الله بزيارة النبى ياسيد . . وبكت . . وبكت النسوة . انتظر سيد حتى شربوا الشربات للمرة العاشرة وقال :

ـ نعم ياأمى . . وماذا عن بلاد الحجاز ؟

قالت :

ـ يابنى . ليست بلادا . . إنها رمال فى رمال . . والحجازيون طيبون كانوا يخدموننا ليل نهار حتى نجود عليهم بالقرش وقطعة اللحم واللقمة ، كانوا ينامون

بجوار خيمتنا ليل نهار لخدمتنا .

شعر بحب شديد لأمه . ظل معها حتى انتصف الليل ، ونهض وقبل رأسها ، وقال :

ـ مبروك ياحاجة .

شدته من يده وهى تهمس

ـ انتظر .

دخلت حجرتها ، غابت قليلا ، ثم عادت ومعها لفة صغيرة ، وهى تقول :

ـ هذه حاجات بسيطة . . جلباب بورد لجميلة . . وجلباب صوف لك ، ومسبحة هدية من عند النبى . قبل يدها وخرج . ورجع فى الظلمة وحده يشده حب وحزن ، فرح وشجن . سمع النباح من بعيد ، وعبر جسر الدلتا ، ثم دخل داره التى غطت فى النوم كلها . دخل بهدوء وحذر ، كاد يخبط فى أم زوجته التى قامت فزعة ، قالت :

ـ سيد ! تعال ياابنى . . طعامك فى الصينية تحت السرير .

اعتدلت جميلة على جنبها . همست بصوت محايد :

ـ أين كنت ياسيد ؟

مد يده باللفة الصغيرة ، وقال لها بصوت يوحى لها بالفرح :

ـ رجعت أمى من الحجاز ، وهذا جلباب لك منقوش بالورد ، ولى جلباب صوف ومسبحة قالت بذات الصوت المحايد :

ـ ومتى رجعت بالسلامة ؟

قال :

ـ الليلة و . . و . . وجاء ابن كامل واخبرنى . و . . وذهب . . و . . كيف أنت الآن ؟ وصحتك !

قالت :

ـ بطنى تؤلمنى .

رد :

ـ لا تخافى . . سأسهر الليلة بين الكتب ، وأحضر لك مشروبا يمنع عنك كل ألم . . ويدرلك اللبن . . لا تخافى ياجميلة ونامى .

وخرج من الحجرة إلى أخرى ، وأطل بفضول على شجرة التمرحنة وبحلق جيدا فيها . ثم استلقى على ظهره . . ثم اعتدل . ثم شد الحقيبة الخشبية التى صنعها بيده ، وبيد عارفة شد كتابه ، ووضعه على المنضدة بجوار أقلامه الملونة ، وحمل المصباح الغازى ووضعه فوق

المنضدة ، ثم أطال فتيله ، وجلس يقلب الصفحات التى يعرف .

لم ينشف بعد الحبر الملون المرسوم به كعبة وباخره ، عندما صرخت الحاجة ولطمت خدها عندما اكتشفت ذات صباح موت زوجها ، وتلقى سيد الخبر بقلب كاد يتوقف من الهلع ، وجرى كطفل يتعثر ، وكان يتمتم :

ـ ياأبى . . ياأبى

وقالت « رمانة » لجميلة ، تنصحها فى همس وحذر :

ـ لاتفزعى ولا تبكى . . ولا تغتمى ، لأن هذا يفسد لبنك . . ولبنك يحتاجه ابنك جابر .

بينما دخل الصغار خلف « سيد » ودخل الجميع الحارة السد المزدحمة بالبكاء والنسوة والفلاحين ، والصراخ والعويل يشق عنان السماء . أمسك به الرجال ، لكنه أصر على الدخول ، وكانت الحاجة قد ارتدت جلبابها الأسود ، وتشبثت بسيد البنت الصغيرة التى أخذت ملامح أمها الجميلة ، تعلقت به ، فحملها فى حضنه ، ونادته قائلة :

ـ أبى . . أبى .

ومن يومها لم تناد سيد سوى بأبى . طبطب على

ظهرها بحنان . ودخل الحجرة فوجد الأب ممددا ، له هيئة الهادى الذى استراح ، وجهه حليق ، أراد أن يهزه ، أن يلمس جبينه . انحبست دموع سيد قليلا ثم انفجرت ، وكان « كامل » بجوار الأب جالسا ينتحب . كان السرير نظيفا لامعا ومرتبا . وغطوا الأب بغطاء من حرير اشترته الأم من الحجاز ، لم يستعمله بعد . رجل شد « سيد » من أصابعه فأجلسه على كرسى خيزران ، والمرآة على الحائط لا تعكس أى وجه ، بينما العويل وصوت البكاء والصراخ يغطى كل شىء . رقد قط على الشباك المطل على الحارة ، رآه سيد فبص فى عينيه ، لكن القط بص لسيد فى تحد بالغ . استمد القط من شكله رعبا ما ، ليس من سواد لونه ، ولكن من عينيه الخضراوين المدورتين ـ همس سيد بينه وبين نفسه مكلماً القط : ماذا تريد ؟ . هاقد ذهب . . اذهب أنت أيضا . نهض القط على أرجله الأربع ، قوس ظهره ثم نط من الشباك . اندفع سيد إلى الشباك بص على الحارة كلها ، لم يجد أى قط ، فيما وقفت ثلاثة كلاب فى كسل بين الصراخ والعويل الذى يلف البيت والحارة .

ما أن شيعوا الجنازة حتى رجعوا للدار التى نظفتها النسوة ومسحن بلاطها ، ونعمت الدار بهدوء الحزن

الثقيل ، وفرشوا على الأرض حصرٍ عديدة حيث جلس سيد والرجال ، وظلت الحاجة فى حجرة زوجها لعلها تشم بعضاً من أنفاس قديمة تركها الراحل الذى قالت عنه إنه أطيب الرجال وأحنهم قلبا ، وسمع سيد أن الحاجة أغمى عليها أكثر من مرة ولكنها تشهق عندما تشممها خديجة رائحة عطرة من زجاجة حجازية . تلتقط أنفاسها وتنادى ياسيد ياسيد . لكنه كان بين الرجال .

تابع بعينيه الحائط والجدران ودرجات السلم التى تفضى للطابق الثانى والسطح . هنا عاش طفولته وشبابه ، وتزوج جميلة ، وخرج إلى حلمه الذى سوف يتحقق هذا الأسبوع . ثم قال لنفسه :

لا . . أسبوعان . . بعد أسبوعين سأشترى الرمل والزلط والأسمنت .

وعندما وضعوا صوانى الأكل التف الرجال ، ومدوا أياديهم ، وترحموا على الميت ، ثم أخذوا يتبادلون الحكايات والنوادر . جرت الصغيرة وارتمت فى حجر أخيها وهى تناديه : أبى . . أبى . أجلسها على فخذه ، ربت عليها ، ثم ضمها إليه وطفرت من عينه دمعة لم يرها أحد .

جلسا فى مقهى البليهى . طلبا شايا ، ثم طلب سيد أن يلعبا « الدومينو » فكسبه أبو سعدة عدة أدوار ، ودهش أبو سعده لأن سيدا حريفا ، فسأل سيد بضحك :

ـ ماذا ياشيخ جن . . أنت لا تلعب .

أزاح سيد « الدومينو » وقال :

ـ مشغول . . لابد أن أنجز مسألة البيت . . لابد للأولاد من تربية صحية بين دار من طوب بها كهرباء ، وبها دورة مياه ، وحنفية مياه ، وأمام الدار حديقة . . عجل بالبناء بجوارى ياأبا سعدة . . كن أنيسى . . سوف أسعى لعائلة « الرخ » ونشترى الأرض بثمن طيب .

واستسلم « سيد » للاسترخاء ، مدد رجليه عن آخرهما تحت المنضدة ، ولم يلعب الورق ، ثم طلب فنجان قهوة سادة . ثم قال :

ـ غدا سأهدم أول جدار فى البيت . . لأبنى أول جدار بالطوب .

وكانت ليلة طويلة بها ثقل وحزن . تململ فى نومته . تذكر الأب تارة ، وأخته الصغيرة تارة أخرى ، وأمه أيضا . غالب الحزن وقام ، خرج للحديقة ولرائحة يستطيبها قلبه ، تجول فى برودة الطقس ، ووقف أمام

شجرة التمرحنة . . لا يأتى حين أريده . . إنما يأتى حين يريد هو . .

هذا العفريت صاحب البغلة .

تعثر فى مجرى الماء الصغير الذى حفره . ازداد ضيقه ، فدخل الدار ، وصفق الباب فصرخ الولد :

ـ أبى . . أبى .

حمله برفق . طبطب عليه ، وأخذه فى حضنه ، وهمس له :

ـ غدا سنهدم البيت لنقيمه مرة أخرى . .

هل تساعدنى ؟!

ـ ١١ ـ

خرج الصياد من تحت الغبار ، معفرا ، متربا ، لكنه أكبر حجما ، وأطل بعينيه على البيت الذى تحول إلى كوم تراب هائل والجميع مازال مشغولا بالسرير والدولاب والكنبة والكتب ، فى ترتيبها بالخيمة الكبيرة الذى صنعها سيد ، لكن الصياد جلس بجرمه الضخم فوق التمرحنة التى لم تكسر ولا أز منها فرع ، وانتهز لحظة رجوع سيد بظهره فربت على كتفه الأيمن فارتعد سيد وبص له بعين مشتاقة ودهشة وغير مصدقة ، تنهد سيد وجال بخاطره :

آه أيها العفريت الصياد . . . ما بالك تفر كالزئبق وتحط ثقيلا كالرصاص . مال الصياد قليلا وحدث « سيد » كأنما فى خلوة وحدهما :

ـ أهلاً يا سيد . . يا لها من رحلة . . إن بحر النيل

كبير . . كبير يا سيد . . وجدت مائة جوهرة من جواهر أمى . . وبقيت مائة أخرى من جواهر جدتى لأبى ، وبنيت قصراً تحلم به ، كذلك لن تطوله ، به من النوافذ سبعمائة وبه سبعون باباً ، وسبعة آلاف عمود من المرمر ، وسبع شمعات تضىء أعماق بحر النيل كله . . سيد . . لقد جعلتنى أحلم مثلك بالقصر ، فأبحرت من أجله . . وحشتنى وقلت أراك . . هل استقر رأيك يا سيد ؟ . . ألن تهدمه مرة أخرى ؟ . أراه سيظل هنا أبداً . .

وحينما هتف أبو سعدة :

- يا سيد .

ضربت « سيد » فى أذنه كطلقة مدفع فارتعد ، وحط الغبار ساكناً فوق وريقات التمرحنة الخضراء ، حطت برفق كأنها تحط على روح « سيد » .

سأل أبو سعدة :

- إلى أين رحت ؟ . . أحزنت على البيت الذى تهدم ؟

أليس أنت الذى ضربت فيه أول فأس .

بالفعل « سيد » هو الذى صحا من النجمة ، وتسحب ببطء من جنب جميلة وعيالها ، وداس على رجل محمد النائم على الأرض فركع بجواره بحزن بالغ وأمسك

برجله وقبلها ، بينما كان « محمد » يغط فى نومه ، وخرج ، كان كل شىء زاهيا ما يزال . . الأشجار والأزهار وقناة المياه الممتدة للحديقة الصغيرة كانت رائقة ، وبعض الضفدع يقفز من جانب لآخر . كان الصبح يتنفس والديك يصيح وهو فوق ذؤابة الحطب كاديقع . تنفس بعمق . كل شىء فى حالة استسلام واغراء ولذة لفعل « سيد » القادم الذى سميزق فيه هذا السكون الجميل . على مهل تقدم من الخيمة التى كومها تحت الشباك فى الليل الغائب . الخيمة ثقيلة ، وعليه أن يفعل كل شىء ليخفف بقدر ما على جميلة ، وجسدها الطرى ما يزال . سينصب الخيمة بعيدا ـ هنا . . حيث تكون بعيدة عن البيت الذى سيهدمه ، وبعيدة عن الطوب الأحمر والرمل والزلط والأسمنت ، وعلى مهل سينقل البيت صحنا صحنا ودجاجة دجاجة وبيضة بيضة وعيلا عيلا . وأفصحت الشمس عن فعلته حين انتصبت الخيمة . ونهضت جميلة والعيال ، بل والناس ، ورأوا البيت وقد نقل إلى الخيمة ، وسيد يقول :

ــ اكسرى لى بيضتين وهاتى رغيف

وكوب شاى .

وراح العيال فى كل اتجاه يشدون الغطاء ويشيلون

الكتب ، والراديو ، وأشياءهم الصغيرة ولعبهم ، كانوا فرحين فرحا غامضا ، وهذا يجعلهم أحيانا يتوقفون ، ويكاد السؤال ينط من شفاههم لماذا يا أبى ؟ ، غير أن « سيد » استسلم لكوب الشاى وسأل :

أين أبو سعدة ؟

وقبل أن يسكت كان أبو سعدة وعدد من الفلاحين قد وصلوا بالفئوس والجواريف ، والغلق ، وقد خلعوا جلابيبهم . ونادى أبو سعده :

ــ الشاى للرجال يا أم محمد .

وقام وضرب بمعوله أول ضربة فى جدار البيت الطين ليشق الغبار عنان السماء . وبالطرحة السوداء الخفيفة غطت جميلة وجه طفلها الصغير الذى ابتسم للسماء الصافية التى لا تحدثه . ورجع سيد للخلف ، رجع ببطء ليشاهد التراب فى انهياره الثقيل ، ويرى نفسه وقد حمله من قبل طينا قطعة قطعة وبنى البيت شبرا شبرا ، هو لا يزعل ، إنما يملؤه فرح الطوب الأحمر ، والعمائر التى يراها فى مصر والمنصورة وحتى فى المحلة عند الكوبرى السفلى ، غير أنها عمائر جافة وجامدة مغلقة النوافذ وشرفاتها مغلقة أيضا ، لا تطل منها زهرة واحدة .

ولكن بيتى سيكون بالطوب والأسمنت والزهور

والبنسيانا والتمرحنه التمرضة . التمرحنه . .

وحين صعد الغبار عاليا ، ورجع بظهره يستند على التمرحنة تذكره فى لحظة السكون الأول حين خرج من النهر غير مبتل ، وهتف به الهاتف :

ـ هنا ياسيد .

وإذا بلمسة خفيفة على ظهره ، واذا به جالس فوق الشجرة ، وهو يهتف به مرة أخرى :

سيظل هنا أبدا .

مشى « سيد » فى اتجاه الخيمة وواجه التمرحنة ، وقال لجميلة :

ــ كوب شاى سكره كثير ياجميلة . . فأنا بردان .

نظرت جميلة بعين قلقة للشمس الساطعة وقالت لابنتها .

ــ كوب شاى لأبيك .

بينما ظل الكلب ينبح طويلا فى لاشىء ، فشخط فيه سيد ، فتوقف الكلب قليلا ، ثم على جزع شجرة التمرحنه رفع رجله وبال .

كانت المهمة شاقة على الرجال ، فتم نقل تراب البيت بحرص خوفا على الزرع والشجيرات والقناة الصغيرة . وحمل سيد على ظهره أحمالا من التراب تفوق

أى رجل ، وذبحت جميلة الدجاجات وأكل الجميع بشهية . وعند الغروب الذى مسه الهواء البارد استأذن أبو سعدة قائلا :

ـ خللى بالك من برد الليل ياسيد .

ومضى .

تكوم الجميع فى الخيمة المظلمة ، وكان سيد متعبا بدرجة كبيرة ، وهم أن يقول شيئا لعمر . غير أن العيال قد هدتهم فرحة طول النهار وشقاوة طول النهار ، وهاهم معفرون متسخون يغلبهم النعاس ، وتمددوا على الأرض بأرجلهم الحافية المتسخة وبلا غطاء وبدون البحث عن الدفء صمتوا تماما مستسلمين للنوم . لم يقل لأحد شيئا ، وقام وخرج من الخيمة ، وعلى مهل جمع بعض الأخشاب الجافة الرفيعة وبعض أفرع الشجر ، وأطل على ظلمة التمرحنة ولم ير شيئا . بخطى متردده تقدم . ثم أمسك بالشجرة ، وهزها فلم تسقط زهرة تمرحنة ولم يسقط صيادا أو بغلة . ابتسم ابتسامة مرهقة ، ورجع . ثم أشعل راكية النار التى أعدها ، وحين ارتفعت ألسنة اللهب ابتسمت جميلة وأخرجت ثديها لطفلها وألقمته ، وردد سيد لنفسه ولجميلة وللنار :

ـ سيدخلون المدارس ، ويكبرون ، ويحولون الدنيا

إلى جنة . . سيصبحون أفضل منى . . لكن البيت يلزمه شبابيك جديدة وأبواب ، ومقابض أبواب ، وبلاط وطلاء وسقف ـ سقف يا جميلة من الزلط والرمل وأسياخ الحديد والأسمنت ، وليس من عروق الخشب ، سقف لا يسمح للفئران بالتواجد ، ولا البرص ولا السحالى ، ولا تختبىء فيه العرسة طول النهار فى انتظار الليل ، ولايشب فيه الحريق فيأكلنا ، ولا يهزمنا منه المطر . . يا جميلة . .

نظر فوجدها قد نامت وسقط رأسها على رأس جابر والثدى فى فمه ، فهزها ففتحت عينيها بصعوبة ، وأدخلت الثدى فى الجلباب وتدحرجت داخل الخيمة ونامت بجوار العيال . وظل سيد ساهرا وحده أمام راكية النار حتى خبت ، وجرى إليه الكلب وأقعى بجواره ، فربت سيد على رأسه فنام . غفا سيد ، ورآه يبتسم ورآه حزينا الأب الذى مات ، وأحس بشوق جارف له وبكى فى حضنه وقال له « وحشتنى » ، فركب الأب بغلة الصياد ومضى .

وفى لحظة الضوء صاح الديك وتنبهت جميلة واستقيظ سيد ، تذكر الرؤية وتأملها بتركيز فهو يهوى تفسير الأحلام تلك التى تلون حياته بابداع جميل ، فاتن ،

« خير » . ونهض . وكان اليوم كأغنية عذبة ، حلوا كالحلاوة ، له رائحة مختلفة وغريبة ، رائحة اليوم كانت رائحة الأسمنت حين اختلاطه بالمياه مع الزلط مع الرمل مع أصوات العمال وهم يغنون مع ضربة الجاروف وقصعة الأسمنت ، أرجلهم السوداء النحيفة القوية كانت تتسابق ، والشغالات كن فقيرات للغاية ، ويمتلكن روعة فى الغناء الشجى ، الذى أعجب « سيد » وظل يتمايل معهم محاولا حفظ الأغنية ، بينما كان الغداء من عند أبى سعدة حيث حضرت « هديه » بالصينية الصفراء المدورة الكبيرة ، ويتوسطها ديك رومى . هتف سيد :

ـ خرب الله عقلك يا أبا سعدة . . ديك رومى . . هل سأذهب للحجاز ؟

زغر له أبو سعدة وهو يسأل :

ـ وماذا أخذنا من العائدين من الحجاز .

وحول الديك الرومى والخبز والطماطم وصينية من الأرز المعمر المدسوس بالسمن الساخن بنار فرن « هدية » وعدد من البيضات المسلوقة والمحمرة ، التفوا جميعا . قال سيد :

ضرب الله عقلك يا أبا سعدة . . فعلا .

ومر آخر قطار دلتا لذلك اليوم .

حطت الشمس الغاربه بلون المشمش على جدران من الطوب أحمر فاشتعل القلب ، واحتضن سيد ابنه ، وقال :

هلى رأيت يا عمر ؟

لم يجب عمر . احتضنه سيد ، وهمس :

ـ ماذا بعد أن يقوم البيت ؟ لا شىء . . صدقنى . . بعده تعيش حياتك كما تريد . . لا . . تعيشون أنتم حياتكم .

مضى العمال . ونفض أبو سعدة جلبابه ، ونهضت جميلة لتنظف الخيمة وترتبها قال سيد بدهشة :

ـ لماذا . . لماذا يا جميلة ؟ . . لماذا الخيمة . . عندنا الآن بيت . . ها هو . . نترك الجدران وننام فى الخيمة !! وهذا بيت يحمينا من العراء ، ومن الكلاب الضالة ومن « الديابه » ومن العفاريت أيضا .

وفى الليل قام سيد وأخذ ينقل ما فى الخيمة إلى داخل البيت كيفما اتفق .

ـ ارموا هنا ياعيال بالوسائد والأحمال والحلل . . وهنا يا أولاد . . وابور الجاز وصفيحة الجاز والقمع والبراد

والملاعق والأكواب والسكر والأطباق . . وهنا شوال الأرز وشوال القمح ، والكرنب والخيار ، وهنا الليف ، والكوز النحاس ، وصابون نابلسى ، وماكينة الحلاقة والمقص ، وهنا الجلابيب ، وهنا الكتب ، وهنا . . .

سكت سيد فقد أمسك بالفرحة وهى تكاد تقتله . . وقال :

ـ كل شىء هنا لأن للصباح عيون .

وحمل الفأس ، وحملت جميلة « الكلوب » ووضعته فى وسط المبنى فأضاء أجزاء متعددة من حجرات مختلفة ، ثم دخل الحجرة المطلة على الحديقة ، وقال :

ـ هذه حجرتنا يا جميلة .

وبالفأس أخذ فى تسوية كميات تراب الردم العالية والمنخفضة حتى جعلها مستوية بعد جهد ، وداس بقدميه بقوة ونط فوق التراب مرة ومرة ، ثم نظر ، وقال للعيال :

ـ نطوا هكذا . . وهكذا تضرب أرجلكم فى الطين والتراب ، فينصاع لنا الطين والتراب .

وبدأ العيال ينطون ويصرخون فرحا ويهللون ويصفقون . وضحكت جميلة وركزت على ركبتها وأخذ تضرب بيديها ، ثم تربت عليها بخوف وحنان ، حتى

استوات الأرض كالبلاط . وقال سيد :

ـ كفى . . كفى ـ وهكذا نفرش وننام .

وفى الحجرة نام الجيمع ومعهم الكلب والبطات وقفة ترقد بها دجاجة على بيضها . وفوق أرض بيته ناموا مرة أخرى وقد هدهم التعب . . ما عداه . . وكيف ينام ؟ ود لو قام وقبل كل طوبة ، كان أبوه يهدده لأنه يقيم عنده ، والحارة ضاقت وضاقت حتى كادت أن تبتلع روحه . مات الأب ، اعتصره الحزن بشدة ، وتصنت لصوت النهر الذى أصبح يأتيه من بعيد كالوشوشات ، لكنه يتصنت ، يتخيل الأسماك الملونة باللون الأحمر والأصفر ترقص فى القاع ، تخاتل بعضها ، وتمرق وتنط ، وها قد اندفعت إليها الأسماك المنقطة والفضية والزرقاء ، وجمعتهم خضرة رائقة رائقة رائقة . فزع الولد فى نومه وصرخ يا أبى . مال إليه ، ربت على كتفه ونام الولد ثم تصنت سيد للناحية الأخرى خلفه جسر الدلتا ، كأنما تمر الآن . تك تك تك . . يالبهاء غنائها الحزين المرتل تك تك تك . أغنية طويلة متصلة كالبكاء على زينهم . ياه يازينهم ، كنت تعبر الجسر والعفريت فى أى وقت ، سيد يقول لك اعبر فتعبر ، عبرت بشجرة البنسيانا ولكن لم تعبر بجسدك فقتلك اللعين تك تك تك . غير أن الجنية نهضت فجأة

من نومها بنهديها القمريين وانتصبت أمام سيد فـراح فى دفئها ، ولفته فى حضنها وغطست به بين الخضرة الرائقة ، وكان ياللعجب الصياد يرمقهما بعين نصف مغمضة وهو مركون على بغلته تحت المـاء . انتفض سيد عنـدما لحس الكلب جبهته ، فرأى الشمس تملأ داره الطوب ، ورأى الشمس على أرجل أولاده ورأى الشمس تنعش الـديك الذى قفز إلى الجدار وأخذ يصيـح فى وجه الشـرق مثل رسوم ألف ليلة .

ــ يارب هذا النهار أعنى .

قال هذا وقام ، وشد وابور الجاز وأشعله وفوقه وضع حلة اللبن ، وقام محمد وفى حجرة خاليه وبجوار الجدار بال ، ونبح الكلب عاليا ، واستقيظ الجميع على خبطات أول قـطار دلتا يمـر هذا الصبـاح وصفارة طـويلة كـأنها تزغرد ، خرج سيد إلى عتبة البيت وواجه النهر والأشجار والخلاء ورأى بعضهن وقد حملن جـرارهن ليملأن المـاء ومن بعيد المآذن والمصانع والمقاهى ، وقال لنفسه :

ــ هذا عالم جديد .

ورآها فجأة أمامه متشحة بسوادها وهى تقول :

ــ صباح الخير ياسيد .

أمـه . . بلحمهـا وشحمهـا وعـظمهـا ، نـزل من

العتبة ، قال بلهفة الطفل واستغرابه .

ــ أمى . . تعالى . . تعالى .

وشدها من يدها لتصعد العتبة العالية وهو يقول :

ــ جعلتها عالية للمستقبل فالشارع سوف يرتفع ـ ياجميلة ـ هذه أمى الحاجة ياجميلة .

ونهض العيال ، والتفوا حول الجدة بفرحة مدهشة ، فرح كالجنون وهم يصرخون :

ــ ستى . . ستى . .

وجذبوا الملاءة والطرحة ، وقبلوها من يديها ورجليها ، وقالت جميلة :

ــ سنشرب معا اللبن .

بعد الافطار انطلق العيال تجاه النهر ، يتسلقون الشجر ، ويجرون وراء الفراشات ، ويجرون خلف الكلب فيقفز عليهم وينام تحت أرجلهم كطفل ، سيد عينه عليهم ، وأذنه مع أمه التى شكت قسوة الأخ والبنات ، وشكت الجوع ، وغياب زوجها . حينئذ التفت لها « سيد » وكانت تبكى بشدة وهى تقول :

ــ ذهب إلى سيدى الغمرى ذات ظهيرة ليصلى . . لكنه لم يرجع . . وسألت عليه قالوا إن فاطمة أخذته وتزوجته مع انها يابنى عندها من العيال عشرة .

هتف سيد بفزع :

ـ أمى !!

فأردفت الأم :

ـ كل هذا من أجل زوج من كوارع الجاموس طلبتها . . فقال يوم الجمعة به ساعة نحس . . ولم يرجع . . هل يرضيك يا سيد . . شهر ولم أضع لقمة فى بطنى .

صاح سيد حتى يسكت أمه :

ـ أمى . . كفى

ونادى على زوجته :

ـ ياجميلة .

وحين هرولت إليه كانت الحاجة تقول موالا عن الموت . فسكت سيد ، وسكتت جميلة . همس سيد لجميلة :

ـ خللى بالك منها . . لن تترك هذا المكان .

ونزل عتبة الباب إلى قلب حديقته المشجرة ، وداس فى قناته الصغيرة الضيقة وقال :

ـ لم تعد تنفع .

ومضى سائرا بخطى منتظمة ، وعبر جسر الدلتا ، وصعد إلى الوراقة وجلس على مقهى البليهى ، وجاء

الولد بالقهوة الزيادة ، ومر بائع الجرائد على دراجته فاشترى منه جريدة الأهرام ، وطالعته صورة الملك ، وسمع صوت كامل يقول :

ـ كيف حالك يا سيد ؟

نظرا لبعضهما نظرات قصيرة لكنها مشحونة بالآف المشاعر من حب وعتاب وتساؤلات ليس لها آخر . قال سيد :

ـ اجلس يا كامل .

فجلس ، طوى « سيد » جريدته وهو يقول :

ـ شاى ياعبد الجليل . . سمعت عن غزواتك العنترية يا كامل من إغلاق المقاهى إلى الخناقات الدائمة مع معلمين سوق الخضار وسوق اللبن . . ماذا تريد أن تكون معلما كبيرا . . لا أخاف عليك من المنازلة . . أخاف عليك من غدرهم .

تنهد كامل بغضب ، ونفخ . وقال :

ـ سيد . . أمك أصبحت غير طبيعية .

ثم ساد الصمت بينهما ، وشرب سيد القهوة ، وكامل شرب الشاى . سأل سيد :

ـ من السبب يا كامل ؟ . . على أى حال أمى عندى

فى بيتى . . ألم تسمع أنى بنيت بيتا بـالطوب الأحمـر . . شرفنى يا كامل . . سلام عليكم .

ورمى بقـرش صاغ عـلى رخامـة المائـدة المدورة ، ومضى ، وأمسك كامل بالنبوت وكان كله رغبة أن يجرى خلف سيد ويزعق عليه :

ــ أنا أحبك يا سيد .

تعثر سيد فى كوم كناسة ، ورنت ضحكة عالية من عباس ، رمقه سيد فضحك ، وذهب إلى عبـاس حيث يجلس على مقهى « مكى » وكان يشد أنفاسا من الجوزة ليطلق دخانها مع الضحكة وهو يقول :

ــ هـذه شوارع بنت كلب . . تعـالى واركب معى الحنطور ونأخذ جوله .

ضحك سيد وقال :

ــ والله أنت خنزير يا عباس . . أنا أحب الحنطور وأتمنى أن آخذ به جولة على كورنيش النيل فى المنصورة . . عنـدمـا تنقضى أشغـالى سـآخـذك معى عـلى حسـابى للمنصورة .

قال عباس :

ــ ياليت يا سيد . . على فكرة منذ قليل مر أبو سعدة

رأيته وأنا هنا يعبر جسر الدلتا . . إليك طبعا . . أم تراه ذاهب للعفاريت .

وضحكا معا وأسرع سيد خطاه . وحين وصل ، كان أبو سعدة جالسا بجوار التمرحنة فى انتظاره ، والأم الحاجة المتشحة بالسواد تقعى على عتبة الدار العالية . رحب به سيد ، وقال أبو سعدة :

ــ اجلس يا سيد . . أريدك فى شىء هام .

قال سيد :

ــ وأنا أيضا . . أريدك فى شىء ما .

قال أبو سعدة .

ــ ماذا تريد أنت . . أنا أشيائى بسيطة لا تحتاج لمعجزات . . قل لى ماذا تريد أنت يا شيخ جن حتى يطمئن قلبى وأعرف ما تخبئه الأيام القادمة .

ضحك سيد ، وضحك أبو سعدة . استند سيد بظهره لشجرة التمرحنه ، وقال :

ــ بئر .

لم يفهم أبو سعدة بسرعة ، وسأل :

ــ ماذا تعنى ؟

قال سيد :

ــ أعنى سأحفر بئرا هنا . . هذه البئر ضرورية للغاية

لـ . . لأسقى الزرع بالطبع .

قال أبو سعدة ضاحكا :

ـ بالطبع أم بالماء !!

ضحكا مرة أخرى . وقال سيد !

ـ بالماء النقى النابع من بطن الأرض .

وسأل أبو سعدة بجدية :

ـ وقناتك الصغيرة ؟ !

وضعت جميلة كوبين من الشاى أمامهما ، قال سيد وهو ينظر فى عينى أبى سعدة :

ـ يا أبا سعدة لن يبقى الأمر على ما هو عليه . . فغدا ستمر العربات والناس وتكثر الدراجات ، فماذا سيكون مصير قناتى الصغيرة ، وماذا سيكون مصير زرعى المسكين . . لذلك فكرت فى حفر البئر فى قلب حديقتى لا أجرح أحدا ، ولا أحد يجرحنى ، ولن احتاج سوى لفأسى وعضلاتى .

ابتسم سيد ، وقال .

ـ وأنا أيضا يا أبا عرب سأكون معك . . سيأخذ حفر البئر يوما واحدا .

قال سيد :

ـ بعده يرتفع الماء قليلا قليلا .

وأردف أبو سعدة :

ـ ثم تروى زرعك بدلوك .

قال سيد ضاحكا وهو يخبط على ظهر أبى سعدة :

ـ وماروى زرعك مثل دلوك .

ومن فوق العتبة العالية للبيت ، سألت الأم العجوز :

ـ لماذا تضحكان ؟ . . أضحكانى معكما .

رد عليها أبو سعدة :

ـ ابنك سيحفر البئر ليشرب الشجر .

قالت الأم برجاء :

ـ لما يكبر الرمان . . لا تحرمنى من رمانك يا سيد . . من زمان لم آكل رمان . . منذ ذهب أبوك إلى فاطمة ولم يرجع .

اختفت البهجة من وجه سيد وهو يتمتم :

ـ رمان !! شجرة رمان . . لم لا ؟

ثم سكت ، وأخرج علبة سجائره ، وأخرج سيجارة ، وقال :

ـ لم تقل لى يا أبا سعدة . . ماذا كنت تريد .

نظر له أبو سعده طويلا ، وقال :

ـ كنت أريد . . أن أصبح جارك وأبنى بيتا هنا مع

الشيخ سيد . . والجن . . والعفاريت .

وزحف الطفل حتى أمسك برجل سيد وأخرج لسانه يلحس الحذاء . شاله سيد من تحت إبطيه ، صارخا بحزم :

ـ إياك أن تلحس حذاء أحد .

قال أبو سعدة :

ـ لا تشخط هكذا فى جابر . . إنه لا يفهم .

احتضن سيد ابنه جابر بقوة ، وهو يتمتم :

ـ التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر . . أليس كذلك ؟

هـذان بيتان جميـلان يقومـان فى الخلاء الـواسع ، أمـامهما نهر يسـير على مهـل ، وبعده الحقـول الخضراء دوما ، والأشجار العالية العالية البعيـدة تصنع أفقـا من خضرة داكنة تأخذ عينيى « سيد » إلى البعيد ، يستمتع بمنظرها وكأنما يحصد بعينيه الزهور المتألقة ، ويشم رائحة الحدائق تأتى من بعيد .

هذان بيتان جميلان يقومان فى الخلاء خلفهـما جسر قطار الدلتا ، وخلفهما فى أول المحلة تقوم المصانـع التى غيرت شرق المدينة بينما هنا . . نظر « سيد » حوله فرأى رغم جمال الخلاء أنه مجرد أرض للجنة القادمة . وهذان البيتان تلاصقا جدار بجدار ، بعد أن بنى أبو سعدة بيته كأنما يستند على بيت « سيد » .

قليلة هى الشهور التى مضت فى عمر تغيير هذه الأرض الخالية التى نشعت فيها المياة أزمانا طويلة ، وحين انتهى بناء بيت أبا سعدة فرح سيد وقبل أبو سعدة واحتضنه ، وتمتم سيد لأبى سعدة :

ـ هى البداية يا أبا سعدة . . بعدها سيكون هنا صفُ من البيوت ، بل قل العمارات . . لهذا النهر سيكون الكورنيش من الأحجار أو من أسياخ الحديد الملون وسيقوم على النهر المسرح والسينما ، وسيقطع النهر عرض الجسور التى ربما ترفع فوقها التماثيل .

قاطعه أبو سعدة :

ـ تماثيل الفراعنة يا سيد !

فكر سيد ثم قال :

ـ ممكن ، ولكن لابد من تمثال لطلعت حرب .

وحين رأى الاستفهام فى عينى أبو سعدة ، قال :

ـ طلعت حرب الذى بنى شركة مصر ، المصانع ، وبنى السينما والبنوك . . آه . . ما علينا ، من هنا ستتبدل الدنيا وتتغير .

وأحست جميلة بأمان وبدفء الحياة . ها هى وقد أصبح لها جيران ، وها هى تخرج الصبح وتفرش كل الوسائد والمراتب والأغطية فى الشمس على سور الحديقة ،

والسور الذى بناه سيد من جذوع الأشجار الضخمة الكبيرة ، أحاط به الحديقة والبيت ، وفتح فى السور بابين : بابا كبيرا واسعاً مواجها تماما لباب البيت ، وباباجانبيا صغيرا الخارج منه يكون أمام بيت أبى سعدة ، وها هى جميلة تجلس بجوارالبيت الصغير تنقى القمح فى الغربال الكبير ، وتجلس مع « هدية » زوج أبى سعده ، وتتحدث وتحكى ، فرحة غامرة بجيرانها ، وفرحة بالجواميس التى تدخل دار أبى سعدة وتخرج . جميلة تحب رائحة الحياة الفلاحية ، رائحة الأغنام ورائحة اللبن الرائب والسمن البلدى . لا تهدأ جميلة ولا تهدأ هدية طول اليوم من كنس الحديقة وكنس زرائب البهائم من تنقية القمح والأرز والطبيخ ، لا تترك إحداهما الأخرى أبدا ، حتى فى الغسيل من عمود خشبى أمام بيت أبى سعدة امتد حبل الغسيل ليربط بإحكام فى شجرة البنسياتا أمام بيت سيد .

هذان بيتان جميلان . قال سيد لنفسه ، عندما كان جالسا فى ذلك الأصيل أمام الباب على كرسى خشبى ، وكان فى جلسة الأصيل ينتظر عودة أبى سعدة من حقله بجَاموستيه وحماره وعنزاته الثلاث وخروفه ذى القرن الكبير وبكلبيه اللذين أثارا الرعب فى البداية فى قلب أولاد

سيد وكلبهم ، ولكنهم أصبحو جميعا أصدقاء الآن وها هم يلعبون معا ، أولاده وأولاد أبو سعدة وكلابهم ، ومهما يملا الصراخ وازداد التصفيق فانهم سعداء . الأصيل هادىء وجميلة فى الداخل تنظف الفراش لاستقبال الليل ، وتلمع زجاجات مصابيح الجاز ، وتلمع زجاج الكلوب الموضوع فى الصالة برفق وحذر ، وعلا هتاف الأولاد بصورة مفاجئة وهم يصيحون ويشيرون تجاه النهر :

ـ حمار فى النهر . . حمار .

انتفض سيد حين نظر إلى النهر فرأى به مركبا تمضى بتؤدة وبها حيوان ، انتفض لأنه المركب ولأنه الصياد ولابد هى البغلة ، جرى سيد فوقع الكرسى ووقعت الجريدة وعلبة السجائر ، جرى بقلب يدق إلى الشط ، وكانت المراكب تسير بتؤدة والرجل مضطجع فى مركبه نحيلا وضئيلا ، والحمار حمار حقيقى يأكل البرسيم ويهز ذيله . أخذ سيد نفسا عميقا وسأل نفسه :

لماذا أخاف حين أتذكره . . ولماذا أفرح .

ثم ابتسم . ها هو يأتى بجواميسه هذا الطيب صاحب العيال . سيدخل أبو سعدة داره ، ثم بعد نصف ساعة تفرش هدية أمام الدار الحصيرة الواسعة ثم تضع الطبلية الكبيرة ثم صينية الأرز المعمر ثم أى شىء وكل

شىء حولها .

وها هو الليل يحط مع أصوات صرصور الليل ونق الضفدع والنباح البعيد ، ويجلسون جميعا على حصر سيد فى حديقته الصغيرة التى أخذت شكلا نهائيا ، يجلسون بجوار البنسيانا ، و « علية » تروح وتغدو كأنثى حين برز صدرها مثل ليمونتين صغيرتين . ويطول الليل فى الحكايات ويعود سيد يحكى حكايات من ألف ليلة وليلة ، والظاهر بيبرس . وحين يتطرق الحديث عن جنية النهر والعفاريت تتسمع الآذان وتبحلق العيون .

هو النوم فقط الذى يأخذهم إلى حجراتهم فى الداخل وتحت الأغطية ، يقفل سيد الباب ، وكذا أبو سعدة ، فى انتظار الفجر الذى يأتى بأمانه فى صبح جديد .

فى الصبح يقوم سيد . . فى الصبح الباكر الذى تعوده ، يرى خروج النهار من الليل ، وتنهض جميلة ويشرب الشاى باللبن ، ويفتح الباب يطل على حديقته ، يمر على التمرحنة ، ثم يخرج من الباب الجانبى الصغير ، عندما يكح أبو سعدة وتنعر الجواميس وينهق الحمار ، فى لحظة تحية الصباح يتبادلان الحديث كأن الحديث لم ينقطع ، ثم يعبر « سيد » جسر الدلتا ويشق طريقه من عند دار أبيه ، ثم يدخل الدار وفى يده الكعكات التى

اشتراها من « طلبه » على رأس الشارع ، ويدسها فى حجر أمه ، ويطبطب عليها ، وتقول له :

ـ أول مره آكل منذ أمس .

فيبتسم ويخرج . يمر من أمام المقابر ثم يشق طريقه إلى جانب المدينة القديم . الأنوال ما تزال تئن ، ورائحة الأصباغ تعلن عن نفسها بجرأة ، وحين يصل إلى الشارع الكبير يواجه الكوبرى الذى يقطع البلد عرضا ولا يكون أمامه سوى عبور جسر السكة الحديد ، جسر القطار الكبير الذى يعبر المحلة ليصل إلى طنطا ومصر ، يصل دائما عندما يكون قطار السادسة على وشك المرور وتكون البوابة الحديدية قد قفلت الطريق بذراعيها فلا يعبر بشرولا سيارة ولا دابة . كان لسبب ما يحب هذا المشهد لحظة التوقف التام ثم العبور المدوى للقطار الذى يبدو كسهم يشق الدنيا ، ويحب صوت القطار بل ودخانه الذى يصعد عاليا ، ثم تزمجر العربات ويتأهب الرجال والدواب للعبور لحظة رفع ذراع البوابة . يعبر سيد ، ثم ينحرف يمينا بعد الجسر ليمشى دقيقتين حتى يصل إلى السلخانة عمله الذى استقر فيه أخيرا . . إذ كان لابد بعد مرض الأم أن يتابع هو بنفسه البضاعة التى هى تجارة أبيه صاحب الدكان ، الذى استمر « كامل » فى عمله بها .

ولكن بسبب حادثة وقعت ذات يوم ، استمر سيد فى السلخانة ، ذلك عندما رأى « سيد » بعينيه بقرة المعلم مرزوق وقد ذبحت وهى مريضة ، لقد لاحظ بعينيه رئة البقرة مدرنة متميزة ببقعها البيضاء ، وحجمها الكبير غير المعتاد ، وقال يومها للمعلم مرزوق :

هذه بقرة مريضة . . ومن سيأكلها سيمرض . . اتقى الله يا معلم .

فتبجح مرزوق وادعى أن الطبيب قام بالكشف عليها ، وليس عليه أن يحشر أنفه . لكن « سيد » قرر أن يحشر أنفه ، وذهب للطبيب وأخبره ، وأصر الطبيب أن البقرة فى حالة جيدة وأنه لا يفهم فى الطب البيطرى ، وتحول النقاش إلى عراك ، لولا تدخل « كامل » واعلانه بأن من يمس « سيد » سيذبحه فوراً بسكينه . عند ذاك طلب « سيد » من « كامل » أن يستخدم قوته وصبيانه فى أن لا يخرج رطل لحمة واحد من السلخانة حتى يرجع . ورجع سيد ومعه البوليس ومدير الصحة وأشار على البقرة وعلى الطبيب ، وأعدمت البقرة ، ونقل الطبيب . وعندما جاء الطبيب الجديد كان قد سمع من مدير الصحة عن الشيخ « سيد » فأخذه معه فى يومه الأول إلى داخل العنابر حيث الذبائح معلقة ، ودعاه الطبيب إلى أن يتابع معه

الكشف الطبى ، حتى يلاحظ سيد بخبرته الكبد التالف والرئة المدرنة . ومن يومها أصبح « سيد » مع الطبيب كمساعد ، وحتى لو تعثر الطبيب أو تأخر لسبب ما ، كان العمل لا يتوقف ، إذ يخرج « جلال أفندى » المعاون مناديا :

ــ يا شيخ سيد . . مر على الذبائح .

وفى عودته ظهرا من السلخانة يعرج مرة أخرى على أمه وفى يده لفة الكبدة وبعض الخضر وبعض الفاكهة . . فتقول أمه :

ــ أول مره آكل منذ أمس .

ومنذ تمكن « جابر » من السير على قدميه لمسافات طويلة أصبح عاشقا لهذه السكة ، من البيت حتى جدته مرورا بالمقابر عابرا الجسر الكبير إلى السلخانة حيث يخلع « جابر » صندله ويمشى فى الماء الذى يغمر العنابر ، ويرجع يأكل الكعكة والبيضة ، ويخرج من البوابة الخشبية السوداء الضخمة للسلخانة ، إلى الفضاء الواسع أمامها حيث به كشك صغير أحبه « جابر » ، يخرج إلى الكشك الذى يحبه فى الشتاء . فى داخل الكشك الشتائى ثمة أبخرة ، وأنفاس دافئة ، يتابع خروج البخار من الأفواه . ما أن يراه « عبد السميع » حتى يناوله كوب الشاى ،

فيشربه « جابر » وهو يستمتع بحكايات الجزارين وبضحكاتهم العذبة البسيطة ، وكان دائما يحلم أن يكون قويا مثلهم . غير أنه يشعر بالفخر والزهو فرغم قوتهم لم يستطع أحد ذات صباح صيفى أن يمسك بثور المعلم « سعد » عندما انفلت من أيديهم حين العمل على طرحه أرضا ، فجرى الثور جريا مجنونا وكأنما دله أحد على مكان البوابة الكبيرة ، جرى « جابر » بسرعة خاطفة وارتمى على عتبة باب حجرة « جلال أفندى » المعاون ، ومرق الثور ، ووقف جابر مع ازدحام الجزارين على الباب وهم يتابعون الجزارين الآخرين وهم يلهثون وراء الثور . . الثور الذى أنهكهم ، وأوقع البعض أرضا ، بل وضرب أحدهم رأسا أطاحت به فى بركة المياه ، وخاف الجميع من الثور الهائج ، فصرخوا ، وفزعوا أخيرا وبحثوا عن الشيخ سيد الذى كان فى الداخل عند المسمط ، فخرج مسرعا ، وخلال جريه خلع نعليه وخلع جلبابه ورمى طاقيته ، وطار ، أوشبه أنه طار ليواجه الثور من أمام ، ولحظة واحدة وكان الثور قد وقع فى يده ، بالضبط فى اصبعه ، وشرح لهم سيد أنه واجه الثور وبسرعة خاطفة دفع بأصابعه فى عين الثور وشدة من جفنه فاستكان الثور وانهزم وأطاعه ، فسلمه لهم . وأخذ « جابر » من يده

وجلس معه فى الكشك وشربا الكاكاو والشاى والقهوة .
لم تنقطع رحلات جابر بعد ذلك إلى السلخانة ، وكان الشيخ سيد يحذره كل صباح :

إياك ياجابر أن تحلم بالجزارة . . احلم بأشياء أخرى . . ولا تكره الجزارة

وكانت أجمل رحلات « جابر » حين أخذه « سيد » من السلخانة ، وركبا معا على ظهر الحمار ، وقال له الأب :

ـ سنذهب للجنة .

ودهش « جابر » ، وظل وهو خلف أبيه يحلم بالجنة ، حاول كثيرا أن يتخيلها من قبل ، لكنه لم ير فى خياله سوى ألوان خضراء مثل سحابة ، تلعب معها ألوان حمراء ، بينما تجرى أنهر زرقاء لها أمواج كالبحر . . وكيف تكون الجنة !! . قطع « سيد » طريقه بالحمار بسرعة فائقة على طريق زراعى بجوار نهر رفيع ، ثم انحرف يمينا ، ووقف أمام رجل عجوز يجلس على قطع من نخلة يستعمله مثل كرسى ، ويبدو أن الرجل يعرفه لأنه نهض وسلم على سيد بحرارة . وربط « سيد » الحمار فى شجرة عجوز ، وقال الرجل :

ـ تفضل يا شيخ سيد .

رأى « جابر » خضرة كثيفة لم ترها عيناه قبلا ، ومشى بين زروع غريبة لا يعرفها ، وزاغ بصره بين ألوان عدة من زهرات ملونه بألوان بهيجة ، زهرات حمراء لها ملمس القطيفة ، وزهرات خشنة ذات رائحة نفاذة . وتحت تكعيبة « العنب » جلسوا ، ولا يعرف « جابر » من أين جاءت نبت أكبر منه بقليل بصينية فوقها ثلاثة أكواب من الشاى الخفيف ، وقام العجوز وعاد بعد فترة قصيرة بشجرة رفيعة فى طول أبيه ، لها وريقات صغيرة خضراء ، ثم أخرج « سيد » حافظته البنية ذات السوستة وأخرج فلوسا وأعطاها للعجوز ، ثم حمل الشجرة على كتفه ، وشد « جابر » من يده الصغيرة النحيفة ، وخرجا من باب المشتل الزراعى ، وعلى الحمار عادا معا بشجرة الرمان . ولا يدرى « جابر » ما سبب هذه البهجة التى غمرته بهذه الشجرة وهذه الرحلة وهذا الحمار ؟

وبجوار البئر زرع الشجرة ، ورمى « عمر » بالدلو فى البئر ، وشده بمائه قدر ما يستطيع ، يرش الماء على الأرض بفرح ، ويسقى الزرع ويغسل الشجر . . بل من البئر كانوا يعيشون من غسيل وتنظيف إلى سقى الزرع والطيور والحيوان ، وأبو سعدة أيضا غطت البئر كل حاجته .

رش « عمر » الماء على اخوته ، نهره الأب ،

وضحكت جميلة ، وفجأة اقبلت الأم مهرولة مجهدة وهى تسأل وسط دهشة الجميع :

ــ هل أحضرت الرمانة يا سيد ؟

اقترب منها ، وقال :

ــ من أجلك يا أمى . . غالية والطلب رخيص .

وركنوا بعد تعب بجوار البيت الطوبى ، بينما « جابر » وقف أمام « سيد » وقال بلا سبب :

ــ أبى . . أريد أن أصعد على التمر حنة وأجلس وأنام !

وضج الجميع بالضحك . ما عدا « سيد » الذى استغرب ، ودق قلبه دقة عالية .

وعندما أزهرت شجرة الرمان زهورها الحمراء ، كان البيت يتلألأ بأبوابه وشبابيكه ونظافته . وكان على « سيد » أن يذهب اليوم مع أبى سعدة لشراء كل أدوات الكهرباء .

وقال أبو سعدة :

ــ التكلفة كبيرة يا شيخ سيد .

رد « سيد » :

ــ الضوء يا أبا سعدة . . العيال بالمدارس . . والمذاكرة محتاجة لضوء ، والقراءة محتاجة لضوء . . وجميله

تحتاج للضوء . . فى كل حجرة مصباح ، وفى الصالة مصباح نيون يجعل الليل كالنهار وأنت أيضا عليك بالكهرباء .

قال أبو سعدة ساخرا :

ـ كهرباء للجواميس .

وقف « سيد » وقال باصرار :

ـ نعم للجواميس ، وللدجاج ، غدا ستتحول حياتنا إلى كهرباء . . كل شىء بالكهرباء يا أبا سعدة .

ومضيا معا إلى شارع العباسى الذى أصبح أكثر ازدحاما ، وكثرت به الدكاكين ، وصخبت أصوات الراديو عالية ، وارتفعت أسعار كل شىء البيضة ورطل الكبدة والسمن الفلاحى . لكنه رجع بكل ما يحلم من أسلاك ومصابيح وأزرار ومواسير ، وكان نصيب « أبو سعدة » لفة كبيرة حملها تحت إبطه ، ورجعا ، ومرا على الكهربائى الذى ترك ما فى يده وهرول معهم بمشيته العرجاء ، وكان يؤكد فى كل لحظة :

ـ إن شاء ربك سيكون البيت فى الليل مضاء .

غير أن الليل جاء وكان الكهربائى لم ينته بعد من نصف توصيلات البيت بين فرح العيال ، وجميلة التى تصنع الشاى تلو الشاى ، والسجائر التى نفثها الكهربائى

من سيد تجاوزت العلبتين ، وكان « جابر » يتحسس المفاتيح والأزرار ونعومة الأسلاك ويراقب الكهربائى الذى ينتقل سلمه الخشبى من مكان إلى مكان . وفى اليوم التالى بعد تناول الكهربائى الغداء مع سيد والعيال وقال الحمد لله ، صعد على سلمه ، وقال : اضغط على زرار الكهرباء يا معلم سيد . فضغط « جابر » ، ارتعش مصباح النيون مرة ومرة ، وبين كل مرة فى تلك اللحظة الخاطفة وقع قلب « جابر » متصورا أن التجربة فشلت وأن الحلم راح هباء ، لكن المصباح النيون الأبيض ملأ البيت نورا ، فزغردت البنات الصغيرات بطفولة ، بينما سحبت « عليه » أختها الأصغر « هناء » لغسل الأوانى والصحون ، فيما قفز « جابر » لأعلى وهبط وهو يكتم فرحته ، وابتسم « سيد » ابتسامة واسعة راضية مطمئنة ووجد نفسه وحيدا فى الحديقة يشم رائحة « اللويزا » ورأى الخضرة يانعة وكأنها استقرت أبدا ، فأخذ شهيقها طويلا وقال لنفسه :

ـ الآن . . أكملت البيت . . وليس لى

سوى الراحة .

واهتزت شجرة التمر حنة ، فارتعد رغم الشوق إليه . وهم إلى الشجرة ، ولكنه وجد يمامة وهدهدا ،

فطارا وضربا بأجنحتهما بشدة ، وسمع صوتا يضرب فى مياه البئر ، فجرى إلى البئر . مال إليه ، بص فى عمقها فلم ير شيئا . قام وهو لا يعرف ما هذا الذى يحسه . نظر وراءه للبيت المضاء ، وقال إنه فى أبهى شكله الآن . علىّ أن أستريح ، وسمع أصوات دراجات بخارية مزعجة ، وصوت نفير سيارة ، وبائع متجول لعله قادم من ناحية وابور الطحين صوته عالٍ مدوٍ ، وسمع حمارا ينهق ، ونباحا متداخلا ، وأصوات أولاده عالية ضاحكة وزاعقة ، ثم وقعت عيناه على أمه وقد أقعت فى ركن بالحديقة وهى تقول بلا توقف :

- قمر . . تعلق فى بيتك يا سيد . . قمر !!

انحنى ، وبرفق شدها من يدها اليمنى التى ما زالت بها غوايش الذهب قامت معه ، ومعه دخلت البيت المضاء ، تقافز حولها العيال فرحا ، بينما جرت جميلة مع « هناء » إلى المطبخ ليحضرا بعض الأكل ، ودخل سيد حجرته ، ونظر للمصباح المتدلى من السقف ، وقال :

- الآن أغير الراديو . . لابد من راديو كهربى .

وأطل من الشباك على شجرة التمر حنة ، والنهر الذى بدا بعيدا جدا جدا عن « سيد » فى تلك اللحظة .

تتوالى الصباحات ، الأيام ، وكأن العالم قد استراح لدفء الشمس التى تسطع ، والكلب تمدد فى استرخاء وعيناه على شط النهر الذى تقفز منه الجنيات بين وقت وآخر . ولا يكف « سيد » عن وضع « طوبة » هنا أو لمسة هناك ، شجرة جديدة أو سجادة ملونة ، أو كتابا جديدا .

تنفس « سيد » الصعداء ، هى الحياة التى تصور ، والمذياع يطلق أغانيه وأخباره وتمثيلياته عبر سلك كهربى ، وزر مثل بلحة أبيض اللون ، البنت الصغيرة « فادية » تضغط على الزر فتنطلق الموسيقى والأغنيات ، وتظل « هناء » ترقص وتتمايل ، تضغط « علية » على الزر فيتوقف عالم الغناء ، ينام « جابر » على ظهره واضعا رجلا فوق رجل وهو يقرأ الجريدة . . العناوين والأخبار ،

ويكره صفحة الحوادث ، ويحب أخبار « شادية » و« ليلى مراد » . وحين كان « جابر » مستلقيا على ظهره فى تلك الظهيرة ، وهو لا ينسى ، دخل « سيد » البيت وهو يقول غير مصدق :

ـ سيتوقف قطار الدلتا . . سيحملون الجسر يا جميلة . .

قطار الدلتا سيمر بعد عشرين دقيقة . . بعدها لن يمر أبدا .

عاود « جميلة » حزنها المبهم ، حزنها الغامض الذى لا تعرف سره أبدا . . هذا الذى يهاجمها فى عز الفرح ، خبطت على صدرها خبطة واهنة ، وقالت :

ـ والناس . . كيف سيسافر الناس .

ركز « جابر » على ركبتيه وهو يقول لأمه :

ـ سيسافرون بالطائرات .

دخل « محمد » وسمع الطائرات ، فقال :

ـ أى طائرات . . انتهت الحرب . . بل انتهت كل الحروب . .

ضحك « سيد » وقال له :

ـ اسمع يا محمد . . الحروب لن تنتهى أبدا . . هذا قانون يا مغفل .

وضع « محمد » الكوز فى زير الماء ، ثم شرب الماء المبترد اللذيذ ، وقال الأب :

ـ هل عرفت أن قطار الدلتا سيمر بعد قليل لآخر مرة . . .

ثم يكون تحفة فى أحد المتاحف .

وبين الدهشة والفرح والحزن كانوا جميعا قد قرروا الخروج إلى جسر الدلتا ليروا لآخر مرة قطار الدلتا ، وكان أبو سعدة يجرى أمامهم وزوجته وأولاده وكلابه ، وللعجب كان عدد كبير من الناس قد تجمع عند الجسر ، وقف « سيد » بينهم وهو يقول :

ـ سنودع الدلتا يا أبا سعدة .

سأل الشيخ أحمد :

ـ يعنى سنرجع لركوب الحمار .

رد « سيد » :

ـ لا . . الأتوبيس والسيارة .

دخل « جابر » برأسه وقال :

ـ والطيارة .

لا أحد يعرف كيف انتشر خبر عبور قطار الدلتا لآخر مرة ، فقد تركت النسوة الدقيق عند الخواجة يني وجرين ، وترك صبية الأنوال أماكنهم الرطبة وجروا إلى

الجسر ، وهرع آخرون من المقاهى إلى حيث الازدحام الذى تم حول قضيبى الجسر ، كان الفرح غير مفهوم والحزن أيضا . ثرثر الناس ، وتبادلوا الآراء ، لكنهم شعروا بالافتقاد الذى سيحدث .

زعق أبو سعدة :

ـ هو قادم . . قطار الدلتا قادم .

تصنت الجميع . . وحين رأوا الدخان من بعيد ، وصوتها وقعقعاتها الواهنة ، صرخوا وصفقوا وصفروا ، ولحظات وبدت قاطرة الدلتا قادمة تتمخطر فى هدوء ، رأوها كما لو أنهم يرونها للمرة الأولى لها جمال وألفة ، تحتضنها العيون فى لحظة الرؤية الأولى والوداع الأخير ، لونُ القاطرة الأسود كان محبوبا تلك اللحظة ، الشبابيك الضيقة ، المقاعد الخشبية ، أقبلت ، فصفرت ، فصفقوا ، ورآهم سائق القاطرة فتمهل وتمهل حتى توقف تماما أمامهم ، وابتسم ابتسامة عريضة ، فصفقوا له ، ودمعت عينا جميلة مثل أخريات ، بل وبعض الرجال والعواجيز والصبيان ، فرفع سائق القاطرة قبعته وانحنى ، وقال عدد من الناس إن السائق بكى فعلا ، وانحنى عدة مرات ، وبيده اليسرى لوح لهم بمنديله الأبيض ، ثم صفر صفارته ، وكانت أقوى صفارة أطلقها قطار الدلتا فى

عمره . ثم تحرك ببطء ببطء ، وأخرج الركاب قليلو العدد أياديهم ملوحين ، ورفع الجميع أياديهم . مال الأب على جابر وقال له :

ـ لا تنس هـذا المشهد . . إنـه آخر مشهـد لقطار الدلتا .

وأخذه من يده ، ومشى به على طول الجسر ، وهو يحكى له :

ـ هنا مات زينهم . . دهسته هذه القاطرة الضعيفة الغبية ، دهسته هو وحماره . . وهنا مات الأخرس حين جلس بين القضبان يعد فلوسه . . وهناك ماتت عـائشة وهى حامل فى الشهر السادس أثناء عبورها ، وقد شردت فى لحظة تافهة ودهسها قـطار الدلتـا . . هل كـان ذنب القطار يا جابر أم ذنبهم ؟

وأخذ « جابر » من يده ، ومشى ، مشى حتى وصل إلى جسر من الخشب ذى الألواح المتباعدة المتفرقة ، وقال له :

ـ من هنا سقط « حافظ » وهو يذاكر . . تلميذ فى الجامعة بمصر . . نابغة . . أخذتـه المذاكـرة ، وانفلتت رجله فأخذه الموت .

استغر ب « جابر » حكايات أبيه . . لم يترك يده ،

كـان يضغط عليها بكـل ما يستـطيـع من خـوف وحب ودهشة ، لا يعرف كيف تركوا الجميع بعد مرور قطار الدلتا ؟

لا يعرف هل كان الأب حزينا أو فرحا ؟ لكن الأب ظل يتكلم بعد ذلك بلا توقف ، وبدأ بقوله :

ـ كنا فى حارة ضيقة تفوح منها العفونة والصراخ . . ورغم أنها آخر حارة وصلتها الكوليرا غير أنها قدمت أكثر الأموات أحمد وعلى وشاهين والجدة أسمهـان ، و البنت الجميلة فريال ، وحلمت بالنهر والخلاء . .

وانتبه « سيد » فجأة وقال :

ـ الزرع . . لم يشرب الزرع من ثلاثة أيام يا جابر .

وانـطلق « جابـر » كسهم يجرى فى اتجـاه بيتهم بلا توقف ، بينما « سيد » يجرى خلفه ويناديه :

يا جابر . . يا جابر .

وحين وصل « سيد » إلى حديقتـه وهو يلهث كـان « جابر » قد شد الدلو من البئر ملآن بالماء ، وبلا توقف أخـذ يروى الـزرع بهمة ونشـاط ، ارتعشت على وجـه « سيد » ابتسامة ، بينما ابتسم « جابر » ابتسامة كبيرة ، وقبل شجيرة القرنفل ، شجيرته التى يحبها ، وربت على التمرحنة ، وشم بعمق راحة « اللويزا » وبخ الماء عـلى

زهرة الدفلى البنفسجية حتى تتألق ، وجلس الأب وركن بظهره إلى الحائط . ها هم الأولاد يرعون الشجر ويرعون البيت ، وتصبح لهم حجرة بها كتبهم وأوراقهم ولعبهم . على السطح تربى « علية » الدجاج ، وهى الوحيدة التى تضع يدها تحت الأرنبة وتتحسس صغار الأرانب ، و« عمر » قد ربى الحمام وبنى له برجا من خشب البغدادلى ، يطلع على سلمه الخشبى قبل الأصيل ويهش الحمام ويصفر ، وبرايته البيضاء يلوح للحمام فيطير الحمام ويلف ويدور وعلى كتفه يحط الحمام . وعثمان الصغير يجمع أخشاباً فى ركن ويحافظ على شاكوش ومنشار ومسامير ولأخته « هناء » يصنع الصندوق ، ولنفسه يصنع العربة ، و« جابر » يراقب الزهرة والبرعم وتفتحها وبهجتها ولونها ، ويفتح تذكرة دواود ، ويقرأ فى ألف ليلة وليلة .

فى الصبح يخرجون للمدارس ، و « سيد » للسلخانة . وحين يرجعون تكون جميلة قد أعدت الغداء ، ثم تخرج إلى وابور الطحين وفى ذيلها « فادية » التى تلعب فى الوابور بجوار شجرة الزنزلخت حتى ترجع مع الأم . وها هو النهر باق . وقطار الدلتا قد توقف ، وأصبحت صفارته وصورته مجرد ذكرى وأصبح الصغار

يقولون لبعضهم قبل النوم : هل تتذكر أيام قطار الدلتا ؟ . وينامون وهم يقلدون صفارتها الضعيفة الواهنة .

وكأنما كانت قضبان قطار الدلتا هى الفيصل بين غرب البلد وشرقها ، ما أن توقف قطار الدلتا حتى أخذت الأرجل تدهس المكان . . لابد أن العفريت الذى يكح رحل هو الآخر مع القطار ، تجرأ الرجال فعبروا إلى النهر ، واختصر الفلاحون طريقهم وعبروا بالجواميس ، وانزاح الخوف من مخيلة العيال فانطلقوا يلعبون بجوار النهر ، بل وتمشى العمال الفلاحون القادمون من القرى والشغالون فى المصانع ، تمشى هؤلاء العمال بجلابيبهم غير النظيفة أو بملابس المصنع حتى وصلوا للمرة الأولى إلى شاطىء النهر أمام سيد ولفت نظره تجمعهم وهم فرحون ، يمصون القصب ، ويدخنون السجائر ، ويجرون خلف بعضهم كأطفال ويقذفون بعضهم بالطواقى . هرش سيد رأسه وهو يقول :

ــ قادمون لا محالة . . وها هو الخلاء يتحول إلى منتزه للجميع . . تدوسه الأرجل وتنط الأبدان فى نهره .

وبالفعل بدأت حركة فى هذا الضرب من المدينة ، وشعر « سيد » بفرح خاص لأنه الذى سبق الجميع إلى

هـذا المكـان ، ولعله الإشـارة التى أرسلتهم إلى هنـا ، وابتسم حين رأى أبا سعـدة أمام بيتـه ، والعيال تكنس المكان ، والكلبة تخرج بجرائها الصغار لأول مرة ، وانتشر الأوز فى المكان ومع البط ينزل إلى النهر .

يـذهب الأولاد إلى مـدارسهـم ، عـلى الغـداء يتجمعون ، فوق السطح يذاكر عمر ، والبنت تلبد بجوار أمها ، وجابر يخرج فى يد أبيه ، يصعد معه المنحدر ، يمر على حمام البلدية الذى تمنى أن يدخله يوما ، فأخذه سيد ذات صباح باكر ، وكان فى الجو لسعة برد ، ولفت لهم « جميلة » مـلابسهم الداخليـة النظيفـة فى بشكير معـطر برائحة ذكيـة ، لا تفارق تلك الـرائحة جـابر من ذلـك الزمن . وحين خلعا ملابسهـما ، ارتعش جابـر ، وكان يغض الطرف عن أبيه ، وأحس بارتباك شديد ، لكنـه خلسة تفرج على العرايا الآخرين ، وخلسة دقق النظر فى شعرهم الكثيف ، وأجسادهم القـوية العفيـة والضعيفة والمنحنية ، وغطس مع أبيه فى المسبح وشعر بسعادة غامرة كـادت تنسيه الـدنيا من هـذا الـدفء المنبعث من المـاء والراحة الغريبة التى مسحت جسده كله ، ثم لعب مع أبيه ألعابا مائية كثيرة ، وسيد هو السباح الماهر ولعب مع ابنه كما لم يلعب من قبل ، وخرجا ليصعدا إلى الـوراقة

حيث دكان « عبد السلام » والأبخرة المتصاعدة من حلة البليلة ، جلس صابر على الكرسى الخشبى الجديد ولاحظ أن الدخان الدافىء يغمر المكان سواء من الحلل أو الأفواه أو صحون البليلة الدافئة ، وشربا معا البليلة التى أنعشت جسده وروحه ، ثم خرجا واتجها إلى دكان الجد الذى أصبح الآن ملكا للعم ، سلم سيد على كامل وفرح كامل بـ « جابر » ونادى على بائع الكعك والبيض وأقسم أن يأكلا كعكا وبيضا ، وشرب « سيد » القهوة ، وبعد تردد قال كامل :

ــ إننا نريد أن نبيع البيت . . بيت أبيك وأمك . . كل يأخذ نصيبه . . لقد بنيت لك بيتا ، وأطمع أنا الآخر أن أبنى بيتا .

نهض سيد واقفا ، وقال :

ـ سأذهب الآن للسلخانة . . أراك فى الليل بمقهى البليهى .

واتجه « سيد » إلى طريق السلخانة ، بينما رجع « جابر » إلى البيت حاملا تحت إبطه البشكير والملابس الداخلية المتسخة ، سمت عليه جميلة :

- بسم الله الرحمن الرحيم

إذ بدا الولد جميلا ذا وجه منسجم الملا ح ، وفى لونه

القمحى راحة وهدوء ، ودعت الله أن يحميه من شر العيون . ابتسم جابر بعذوبة من فعل أمه ونط إلى الكنبة ، ومن الشباك أخذ يطل على النهر ، فأحضرت جميلة جريدة ومجلة ومدت يدها لجابر قائلة :

ـ مر « السنوسى » بائع الجرائد ، وترك الجرائد .

اعتدل جابر وأخذ الجريدة ، وسرعان ما رمى بهما إذ وقعت عيناه على مجلة ملونة مرسوم عليها ولد من ألف ليلة وليلة يبص فى منظار بعين واحدة والكلب يشب بجواره ، وقرأ : سندباد .

ومن يومها لم تفارقه مجلات الأطفال الملونة ، ومن يومها أحب القصص وهل تعلم وكيف تحل هذا اللغز وعرف الألوان ، وجمع المجلات وجمع ، حتى أصبح لديه مجلدٌ كبيرٌ رفيقٌ وصديقٌ فى الليل والنهار ، وكان الأب على مقهى « البليهى » قد استطاع أن يعطى لأخيه ثمن نصيبه من البيت أمام المعلمين والرجال الصالحين بدون عقد أو أوراق أو أختام ، وقال :

ـ لن أبيع بيت أبى وأمى ، سيظل لأمى . . ولأختى الصغيرة ، وسيظل أبدا .

ودس « كامل » الفلوس فى جيبه ، ومضى إلى سوق

البهائم يوم الثلاثاء ليشترى جاموسة وخروفين ليبدأ تجارته فى البيع والشراء واللحوم ، لكنه يومها طبطب على صدر « سيد » ، ودمعت عيناه وهو يقول :

ـ أنت يا سيد الأب والأم . . لاحرمنا الله منك .

وشربوا جميعا الشاى ، ونزل « سيد » من المنحدر إلى بيته فى ونس أعمدة الكهرباء التى وصلت حتى بيت سيد . وبين البيوت التى تناثرت فى خجل بجوار بيت سيد ، يدخل « سيد » بين البيوت يهزه طربا العيال وقد تكاثروا فى المنحنيات ، والنسوة على العتبات ، وتسعده رائحة الخبير تتخلل الخلاء عبر الدخان الذى يعلن عن الحياة ، والكلاب تجرى ، والقطط تموء . وأبو سعدة بنى الطابق الثانى لينام فيه مع الزوجة والعيال ، وترك الطابق الأول زريبة للبهائم . هاهى البيوت تطل على النهر ، وعلى شاطىء النهر تغسل النساء الصحون والحلل والملابس ، يرمى العيال بالطوب والحجارة ، وعمال الشركة فى يوم الأجازة يأتون للصيد ، وأصبح النهر ملكا للجميع ، وسأل نفسه ذات مرة :

هل هرب صاحبى من ضجة المكان . . وهل هجرته الجميلة البيضاء ؟ .

ثم أردف :

ياله من ضجيج .

وكان الصباح حارا عندما جرى إليه « السنوسى » بالجريدة التى تعلن الثورة على الملك ، ورأى صورة الضابط بتواضع ملابسه مكان صورة الملك بعرشه وتاجه ، كاد ينكفىء فرحا وهو ينادى :

ـ يا عمر . . يا جابر يا عثمان

ولم يجد أمامه سوى جميلة ، وكانت تبل رأسها بالماء وتلعن الصف الحار ، قال لها :

ـ الثورة قامت يا جميلة .

وحين لم تفهم ، قال بفرح :

ـ ستتغير الدنيا .

لكنها لم تدرك فى اللحظة . قفز من فوق العتبة العالية ، وكاد يصطدم بأمه .

ـ أهلا يا أمى ـ يا جميلة . . الأكل والشاى لأمى .

كان على عجل ، يريد أن يتحدث مع أى أحد ، فوجدهم فى المقهى يجلسون ، بين ساخط ومسرور وغير فاهم . وكان يحزن بعضهم أن يكون بغير ملك ، وسأل الشيخ النوبى بدهشة .

ـ وكيف نخلع الطربوش بعد هذا العمر ؟

وظل العيال يلعبون فى الحارات الضيقة ، وتهاجمهم أمراض الصيف ويسمعون من المذياع أغنيات بلغة أخرى فيتحلقون فى أمسيات الصيف ويرددون :

ع الدوار . . ع الدوار .. راديو بلدنا فيه أخبار

وكان « سيد » يستمع لمطرب جديد يغنى « ثورتنا الوطنية » عندما سمع صرخة أصابته بالهلع ، فدخل الحجرة المقابلة بعد أن خبط فى « هناء » ، ورأى ابنته الكبيرة تتلوى ، وتعلو وجهها صفرة وخوف ، سأل بفزع :

ـ مابك يا ابنتى

ردته جميلة بيد واثقة مطمئنة ، وهى تدفعه للخارج :

ـ لا عليك . . كبرت البنت وأزعجها الدم الحلال سيعاودها كل شهر ولن تصرخ .

ابتسم ، واختلط عليه الفرح بالأنوثة التى اكتملت ، والقلق على العمر الذى يبدو أنه شاخ ، للحظة أحس بالشيخوخة ، وشم رائحة التمر حنة فهاجت ذكرياته للنهر ، فمضى إليه ، وكان جابر فى الشباك يرسم على ورقة بيضاء طائرة زرقاء .

مـالت الشمس للغروب ، وحط اللون البنفسجى على البيت والأشجار والكلاب ، فقام « سيـد » الحران واتجه للبئر ، وسحب الدلو المملوء بالماء ، وأخذ يرش الماء بتؤدة ، وكان « جابر » ممسكا مجلة يقرأ وهو يمشى من بين الشجيرات الصغيرة يقرأ عن حياة نجمه المفضل « عبد الحليم حافظ » . طراوة ما يحسها الشخص الآن بعد أن بلل « سيد » وجه الأرض بالماء ، فخرجت البنات ببطء وتمددن على العتبات ، بينما الأم ترش برشـاشة جـديدة الناموس والذباب بالمبيد ، وبعدها بقليل وصل « عمر » وكان مرهقا يحمل بيسراه حقيبة من القمـاش بها حـذاء الكرة ، وفانلة الكرة ، التى مازال يبللها العرق . رمى بـالحقيبة ، وقـطع زهرة قـرنفل وركن بـظهـره للبيت ،

وقال :

ـ شاى . . شاى يا علية .

نظر له الأب باعجاب ، وقال :

ـ لابد . . سأذهب معك يوما للساحة الشعبية لأراك وأنت تلعب الكرة . . ولأرى الساحة أيضا .

ثم أخرج «سيد » من جيب صديريه ساعته ذات السلسلة وعرف وقته وساعته ، ومضى ، وهو يقول لهم جميعا ، دون النظر إليهم جميعا :

ـ سأذهب للمقهى .

ومضى يلحظ الغروب الذى حط ، ويلحظ جدران البيوت ذات الطوب الأحمر والتى تكاثرت ، وقامت فوق الأرض بشكل عشوائى غير منظم أثار قلق سيد وامتعض من شكل الحارة التى بدأت تأخذ ملمحها الأول ، وحين وصل إلى مكان قطار الدلتا الذى مضى ولم يعد لقضبانه وجود ، ابتسم ابتسامة شملت الذكريات والفرح والموت والعفاريت ، وصعد المنحنى ، وسمع من يناديه ، وعرج إلى مقهى وهو ليس من رواده حيث كان أبو سعدة جالسا وفى فمه غابة الجوزة ورائحة المعسل تفوح قوية . جلس « سيد » وأزعجه صوت المذياع العالى وصخبه ، قال

سيد :

ـ لم أمر عليك . . ظننتك نمت

رد أبو سعدة فى ضجر :

ـ أنام ـ البيت أصبح جحيما ، العيال يمسكون فى خناق بعضهم حتى بدون سبب . .

نفث الدخان ، وسأل سيداً :

ـ أصحيح ستدخل المياه المنطقة .

قال « سيد » :

ـ نعم . . لكنها محتاجة لمصاريف .

رمى أبو سعدة الجوزة على كرسى من القش ، قائلا بحماس :

ـ ندفع . . لقد تعبنا من حمل الماء من النهر إلى البيت للبهائم وللشرب . . عجزت المرأة ، وانحنى ظهرها من حمل الماء .

قال له سيد :

ـ قلت لك اصفر بئرا فلم تسمع كلامى .

رد أبو سعدة :

ـ بئر . . فى الشارع يا سيد ؟ . . أنت حفرت بئراً فى ملك . . على أى حال . .

سكت ثم نادى على عامل المقهى طالبا الشاى ذا السكر الثقيل للمعلم « سيد » وأكمل :

ـ على أى حال أنت الخير والبركة ـ من الغد تذهب للبلدية وتنهى الأوراق .

شرب « سيد » الشاى ، وقال له :

ـ إذن هيا معى إلى مقهى البليهى

سنلتقى ورجال المنطقة لنجمع الفلوس ـ هيا . .

ومضيا معا حتى المقهى وانتظرا طويلا حتى انتهى الرجال من لعب الدومينو والكوتشينة والطاولة ، ثم عرض « سيد » موضوع المياه ، وشرب القهوه ، وعندما كان ينزل المنحدر مع أبى سعدة وقف فجأة كأنما لسعه خاطره ، قائلا :

ـ أبو سعدة . . أنا سأذهب لأمى أريد رؤ يتها .

شده أبوسعدة من يده وهو يقول : فى الغد يا رجل للنهار عيون . لكنه وقف لحظة ، ثم قال :

يا أخى أريد رؤ يتها . . لم أرها منذ أمس .

استسلم أبو سعدة لرغبة « سيد » ومشى وحده واتجه إلى بيت أمه ، دخل الحارة السد ، فى الظلمة خاف أن

يدوس فى قلب، كلبة أو قطة لم يعلق أحد ــ بعد ــ مصباحا فى العمود الخشبى الواقف كعفريت على رأس الحارة . قال لنفسه ، سأشترى مصباحا لينير الحارة للأعمى .

ودخل البيت ، كان البيت ساكنا تماما ، سمع أصواتا فى حجرة أخيه كامل ، وشعاع من ضوء مصباح الجاز ارتمى على البلاط فى هدوء ، صعد بخفة على درجات السلم ، خبط على باب أمه ، ثم خبط ، ثم نادى :

ــ أمى . . يا حاجة .

وحين لم ترد ، فتح الباب ودخل ، فى الظلمة أشعل الثقاب ، فوجدها نائمة على وجهها ، اقترب ببطء ومد يده ساحبا مصباح الجاز من على الشباك ، واضاءه ، لكنه فى اللحظة أحس بخفقان فى القلب ، قال وهو يضع المصباح على الشباك :

ــ قومى يا أمى . . أنا سيد .

تقدم منها ، ثم وضع يده يهزها بلطف وهو يقول :

ــ أمى . . أمى .

الآن بعد أن أصبح الخاطر حقيقة هزها بقوة ، ثم عدلها فوق الوسادة ، وأفزعه برودة جبهتها وعيناها

المفتوحتان ، وفمها المفتوح أيضا .

قال بحزن طفل :

ـ أمى . . أمى . . لماذا . . لماذا لم يعرف أحد ؟؟

منذ متى ؟ . أمى منذ متى ؟

ثم مرغ وجهه فى جلبابها ، وهو يبكى ، ويد قاسية كأنما تضغط على معدته وتقرصه بعنف ، بكى بألم ، ولم يعرف كم من الوقت مضى حتى هده البكاء ؟ تمخط ، ومسح وجهه فى جلبابه ، وسحب عليها الغطاء ، وشد كرسيا ذا رجل مكسورة وسند على رجله اليسرى ، وأخذ يتلو من القرآن ، وعلا الصوت برخامة فى ذلك الصمت الذى يلف الدار ، وأخذ يتلو ويتلو ، حتى بلغه الإرهاق ، فنهض ، ونزل درجات السلم كرجل قوى ، واتجه إلى باب مندرة أخيه ، اختفى شعاع ضوء المصباح على الأرض ، لم يسمع أى صوت ، وقبل أن يخبط على الباب سمع ضحكة ، وسمع همس الأخ ، حاول أن يخبط الباب ، لكن بدا واضحا ان الرجل مع زوجته فى قمة السهر والنشوة . عض على شفته ، خرج إلى باب الدار ، وقف على العتبة ، نظر للعمود الخشبى ، وعندما بص إلى الأرض طالعه ذلك القط الأسود بعينه ، تقدم منه القط ، لف ثلاث لفات حوله ثم ماء ثلاث مرات . جلس

« سيد » القرفصاء ، اقترب منه القط الأسود ، مد « سيد » يديه فقفز إليهما القط ، أخذه « سيد » فى حضنه ، ونهض واقفا ، وتمم له :

ـ ماذا أفعل ؟ الموت صعب والفراق أصعب . .
لكننى أسألك . . انت هنا منذ متى أيها الأسود ؟

فقفز القط من بين يديه واختفى . رجع « سيد » للوراء ، ثم دخل الدار ، وخبط بلا تردد على الباب ، زعق صوت « كامل » فزعا مغتاظا من الداخل :

ـ من .
ـ أنا سيد . . افتح .
قال « كامل » :
ـ مُر غدا يا سيد .

قال « سيد » بحسم :
ـ أمك ماتت يا كامل .

وتركه وصعد الدرجات ، وعلى الكرسى ذى الرجل المكسورة جلس « سيد » وهو ينشج ، ويسأل نفسه :
لماذا أنا ضعيف هكذا ؟

ثم نظرا لأمه وقال لنفسه : يا أمى .

وبينما اشتعلت الحارة بالصراخ والعويل والبكاء ،

جلس هو القرفصاء ساندا بظهره للحائط ، وكانت جميلة تخرج من باب البيت وتعبر الحديقة وترجع وهى تكاد تلطم وجهها ، انتفض قلبها فزعا على زوجها الذى خرج فى مغرب اليوم ولم يرجع ، أرسلت الأولاد إلى المقاهى والدكاكين ، وكان يمنعها الخجل أن تدق على باب أبى سعدة فى ذلك الوقت ، ولم يخطر ببالها أنه فى دار أمه الميتة منذ أمس ، وأخيرا همست فى أذن عمر أن يدق على باب أبى سعدة بحذر ويسأل فى همس وأدب ، وعندما أخبرهم أبو سعدة غياب « سيد » فُكت كل الطلاسم ، وقبل آذان الفجر كانت تصرخ وتولول وتلطم الوجه على الحاجة التى ماتت منذ أمس وهكذا اجتمع الرجال جميعهم عند سيد ولكن ليس للذهاب للبلدية ، إنما للعزاء . أمتار هى التى تفصل بين البيت والمقبرة ، طالعته الوجوه القديمة للشحاذين والدراويش ، وقراء القرآن ، والحفار ، وكان عدد المشيعين كبيرا ، والأقل هو الذى أحضر الأكل ، فأكلوا وتبادلوا الأخبار والآراء ، وشدوا على يد « سيد » ومضوا . حتى النساء مضين لأشغالهن ، واختفى كامل وزوجته وأولاده فى حجرتهم ، ثم خرج إلى المقهى ، ولمت جميلة أولادها ورجعت ، وهى جد حزينة ، متأسية . وعندما ارتفع آذان العصر كان الصمت شديدا ، فخرج

« سيد » بخطى بطيئة وترك البيت خلفه ، ورائحه أمه التى لم تفارقه ، وتذكر خاله الذى مات فى أرض لا يعرفها ، ومضى بحزنه إلى النهر وجلس على شطه فى المصلى المبنى بالطين والمفروش بالحصيرة اللامعة النظيفة ، تمدد ولم يكن ثمة أحد ، غير أن رهطا من الأغنام مر بغباره وهرولته وضجته ، كما مرت الدراجة ، والدراجة البخارية ، والسيارة الكبيرة ، وبحجر ضرب وجه الماء وقال للصياد الذى لم يره :

ألا تخرج هذه اللحظة وتأخذنى إلى قاع نهرك ؟
أو حتى تغسلنى ــ لماذا لا تخرج ؟

وبحلق طويلا فى الماء الجارى ، فلم ير شيئا ، فقام ورجع إلى بيته بعد خطوات . كان البيت صامتا ، البنات لا يرتدين السواد ، لكنهن حزينات صامتات صمتا يليق بالموت ، والصبيان كانوا مشغولين بألعابهم وأعمالهم . استلقى بظهره على كنبة تحت الشباك ، فنام ، تداعب وجهه سمات الأصيل الطيبة ، ورأى أمه تمد يدها وتشده إلى صدرها ، بذات عينيها الجميلتين وشعرها الأصفر ، رآها أكثر شباباً ونضرة ، تشده إليها وهو ارتمى على صدرها ، ومن جلبابها ذى الزهور تناثرت الزهور

عليهما ، طارت الزهور من الثوب وحطت على رأسيهما ، وامتلأت الأرض زهورا ، وكاد هو النائم يبتسم ، وربت على أمه ولم الزهور فى طرحتها السوداء ، فأخذت الزهور ومضت ، بينما عمت الرائحة العطرة المكان .

هزته جميلة :

ـ سيد . . سيد .

وكان الرجال فى الخارج فى قلب الحديقة ينتظرون سيد ، وحين خرج سألوه متى سيذهب للبلدية ، ومتى ستدخل مواسير المياه بيوتهم ، ومتى ؟؟ فقال سيد :

ـ غدا . . غدا سأذهب .

لم يتناول العشاء ، ولم ينم جيدا ، صورة وجه أمه لا تفارقه ، لكنه فى الصبح نهض، ولبس جلبابه ، ولم يشرب الشاى ، وتلفت حوله فوجد جابر جالسا على الكنبة وقد تعلقت عيناه به ، يعرف أن جابر عندما تتعلق عيناه هكذا يكون راغبا فى الجرى بيد أبيه ، قال له :

ـ البس يا جابر .

بسرعة البرق خلع جابر بيجامته ورمى كتابه المصور ، وارتدى قميصه الأزرق والبنطلون الكحلى والحذاء الأسود ، وأمسك بيد أبيه ، وخرجا وزوجة

أبى سعـدة تكنس أمـام البيت بـالمكنسـة القش ، وفى انحنـائها صبحت عـلى « سيد » ثم فـردت طولهـا وهى تقول :

ـ أبوسعدة فى الغيط ويقـول لك لا تنس مـوضوع المياه .

رد عليها سيد ، وضغط على يد « جابر » واتسعت الخطوات ، وقال يحدث جابر :

ـ سنـذهب للبلدية لنـدخل مـواسير الميـاه ـ تفتح الحنفية فيأتى النهر إليك .

وسأل نفسه :

لماذا لأفرح بدخول المياه حتى حجرات نومنا ؟ أليس هذا شيئا عصريا وحديثاً ؟

قطع جابر تفكير أبيه قائلا :

ـ انظر يا أبى . . النسوة الجالسات على الأرض .

كن بالفعل كثر ، جالسات متجمعات أمـام وابور الخواجة ينى . . ذلك الوابور العتيق الذى لا يعرف سيد من بناه ؟ ، كن يصنعن بهمسهن ضجيجا وتساؤلات ! ذهِب « سيـد » إليهن . كانت القفف مـلأى بـالقمـح والأذرة . ظن أن الخواجة رفع سعر الطحين . . لم لا . .

وكل شىء أصبح نارا .

قالت المرأة التى تعرف سيد :

ـ أغلقوا وابور الطحين ياشيخ سيد .

قال رجل لا يعرفه سيد :

ـ عندكن أرغفة الخبز فى كل دكان . . مالزوم القمح والطحين والعجين والخبيز والحطب والدخان ؟

سأل سيد بهدوء :

ـ هل باعه ؟ ولمن . ؟ هل سيهدم ؟ وماذا سيقام مكانه ؟ لابد متحف . . أو ساحة شعبية أخرى ! هذا جميل . .

ثم قال لجابر :

ـ إذا وصلنا رغيف الخبز جاهزاً فكلام الرجل معقول . . هيا . . هيا لنلحق موظفى البلدية .

وفى المساء التقى بالرجال على مقهى البليهى ، وأخبرهم بكل الحجرات التى دخلها فى مبنى البلدية ، وبمكاتب الموظفين الذين وقعوا ووافقوا وأحالوا ، ورفعوا وأشروا وسجلوا ورقموا ، وقال لهم إن الطلب أخيرا فى يده ، وبمعرفته الشخصية للمهندس اتفق معه على البدء

فورا فى الحفر غدا ، وأردف :

ــ على أن نكرمه ، ونعطيه قرشين ، غير الدخان والشاى .

فوافق الجميع ، وقال أحدهم :

ــ لقد فهمنا هذا الزمان .

ولما جاء المهندس ، وهو فى الأصل ابن « كامل الشوربجى » أكبر بقال فى العباسى ، نصحهم أن يشترك الآخرون لأن التكلفة ستكون كبيرة وباهظة .

قال الحاج مصطفى :

ــ لقد تعبنا معهم .

بينما قال سيد :

ــ لابأس . . لابأس أن نحاول .

وجمع حوله الذين رفضوا المساهمة ، فكانوا يزعقون من حوله :

ــ ولماذا ؟

ــ ألا يكفى هذا النهر ؟

قال سيد فى محاولة لأن يفهموا :

ــ مياه الحنفية مكررة خالية من الأمراض ، والعفونة . . فى النهر بلهارسيا ، وكلاب نفقت .

قال أحدهم وهو يمضى والجميع وراءه :

ـ وحمير أيضا .

قال سيد :

ـ احضر يابا شمهندس . . سندفع التكاليف .

هتف أبو سعدة وهو ينفض جلبابه من غبار قديم :

ـ ياهدية ـ دور شاى ياهدية .

ومن عند حمام البلدية العمومى بدأ الحفر ، وعرق العمال ، وجلس المهندس فى الظل مع سيد والآخرين يلعبون الدومينو ويشربون الشاى ، وما كف العيال ومعهم جابر عن اللعب والقفز حول الحفر وفى قلبه ، وتناول الجميع الغداء مع المهندس فى حديقة بيت سيد ، كما أكل العمال فى حفرهم ذات ما أكل منه « سيد » حيث أرسل ابنته الكبرى بصينية مدورة كبيرة عليها ما تشتهى النفس . ووحده وقف « سيد » أمام البئر ، وقال لنفسه :

الآن تبدلت الدنيا . . ولم يعد للدلو فائدة .

وفرح من قلبه ، بعد قليل ستعم النظافة الدنيا وتختفى أمراض البلهارسيا التى تأكل الكبد ، ستغسل الشوارع بمياه الصنابير . فى الحقيقة هذا ما فكر فيه « سيد » وأخذ يتخيل الدش والصنبور وحمامات السباحة . وفكر فى الأسفلت الذى سيمتد فى نعومة ،

ومكان وابور الطحين فكر فى مدرسة أو ساحة شعبية ستهجر العفاريت المكان ، وتهرب العفاريت من فوق أشجار الزنزلخت ، وبص لشجرة التمر حنة وسأل نفسه :

هل ياترى مازال يسكنها هذا الصياد الذى هجرنى . . ومابالة غاب عنى ؟

ثم بصوت عال نادى :

ــ ياجابر . .

فوجد جابر تحت عينيه فى الحال ، قال له الأب :

ــ عليك الآن أنت واخوتك والعيال أن تردموا هذه البئر . . من الحفر هاتوا التراب وكتل الطين .

ثم أخذ جابر تحت إبطه وهو يقول فى أذنه كالهمس :

ــ وهكذا نحفر البئر ليأتى الماء . . ثم نردمه بتراب الحفر ليأتى ماء آخر .

وفهم جابر الجملة لأنه ابتسم ، ثم طار من فوق الأرض حاملا دلو الماء ، ليعيد السكون لهذه البئر التى كانت روح الحديقة ، ورمى جابر بأول دلو من التراب فى قلب البئر ، حتى تلاه العيال بدلاء عدة ، وهللوا جميعا عندما اختفت المياه وازدادوا حماسا . بينما « سيد » مع « السباك » يحدد له مكان حنفية المياه الخاصة بالحديقة ،

وقال سيد :

ـ هنا . . بالضبط . . أروى الحديقة بخرطوم . . وأغسل الأوراق والأزهار ، وأرش أمام البيت بالخرطوم . . هنا . . بالضبط .

والتف الجميع حول « سيد » ، جميلة والأولاد والبنات ، سأل « سيد » العامل :

ـ هل أفتح ؟

رد العامل :

ـ افتح .

وفتح ـ فاندفع الماء من الصنبور الصغير الأصفر ، اندفع بقوة وعذوبة ، وابتسمت جميلة ابتسامة حقيقية ، وابتسم « سيد » بينما وضع جابر رأسه تحت الصنبور ، وهللوا فرحا ، قال جابر :

ـ أيام الجفاف سنملأ النهر من عندنا .

ما هذا الحصان الذى يعدو ، وتضرب حوافره الأرض كأنها تدق على طبلة . اعتدل سيد على سريره ، وتصنت باهتمام . هذا الحصان يجرى حتى يختفى صوت عدوه ، ثم ما يلبث أن يعود ، وأكثر ما يكون وضوحا هنا أمام البيت تماما . لا يكف لا يكف . عدو كأنه السباق ، حوافر كأنها لصوت مطرقة وسندان ، ولا يكف ، شعر « سيد » أن الأمر ليس حصانا ، فرمى غطاءه وقفز من فوق جميلة والعيال وخرج حافيا ، فتح الباب ، ولفحته رائحة التمر حنة ، وخرج إلى الحديقة ، وكان القمر يداعب النهر بومضات خاطفة خافتة ، وكان الحصان ، ها هو يبدو من بعيد ويأتى كسهم ويقف أمامه تماما ، أحس بشعر رأسه ينتصب خوفا ، لقد رآه الآن . . الصياد

يركب بغلته ، بادره قائلا :

ــ آه يا سيد . . نـادتيك كثيـرا ، ولم تفهم صوت الحوافر . . كان الفجر سيطلع ، وكان علىّ أن أرحل دون وداعك .

بلع « سيد » ريقه ، كـان يود لـو احتضنه وقبله . انتظره طويلا ولم يأت ، فقال بأسى :

ــ سترحل ! إلى أين ؟ ولماذا ؟

قال الصياد وهو يشير إلى النهر :

ــ لم يعد لى مكان هنا . . سأرحل بالبغلة . . أنسيت كنزى الذى أبحث عنه منذ مئات السنين . . ومـادامت هناك أنهر يكون علىّ الرحيل إليها .

فزع « سيد » من فكرة الصياد ، وقال :

ــ ماذا تقول . . النهر باق كالشمس والقمر .

حمحمت البغلة ، أدار الصيـاد عنقهـا فـواجهت النهر ، وقال الصياد :

ــ لا شىء يظل أبدا .

وقفز فجأة وبلا وداع ، قفز فى النهر ببغلته ، وسمع « سيـد » صوت المـاء الذى اهـتز كأنـه شهق ، وسرت البرودة فى جسد « سيد » وخاف فجـرى للبيت ، وشم رائحة التمرحنة فأغلق البـاب ، وفى السريـر نزل تحت

الغطاء وارتعد حين هزته جميلة بيد عطوف ، فقام فزعا كطفل ، وآلمه ضوء النهار ، فقالت جميلة :

ـ قم يا سيد . . المهندسون والعمال ورجال الحكومة كلهم أمام البيت .

تماسك ، وفتح النافذة هاجمته الشمس زر عينيه وأطل عليهم ، فوجد العمال يدقون ، والرجال متزاحمين . خلع جلبابه ، ولبس الجلباب النظيف وطلب الحذاء والجورب ، وحين رفع رجله اليمن ليدسها فى الجورب وجدها متسخة ، رفع اليسرى فوجدها متسخة أيضا ، اتساخاً عرف سببه ، فتذكره فوق بغلته فى وداعه الأخير ، مسح بكفه التراب الناعم من قدميه ، ولبس الجورب والحذاء وخرج اليهم .

قال أبو سعدة :

ـ سيردمون النهر يا شيخ سيد . .

أمسك « سيد » بأبى سعدة من كتفه ، لأنه فى الحقيقة كان سيقع من طوله . اهتز ، لذلك كان الرحيل ، لماذا جاء ليلة الرحيل ، تمتم كالمريض :

ـ سيردمون ـ الـ . . نهر !!

رفع المهندس قبعته ، فبدت صلعته لامعة فى

الشمس ، وقال :

ــ هنا سيكون المركز ياشيخ سيد . . سنجاورك فترة من الزمن . . ونزعجك .

قال سيد كأنه يحلم :

ــ أبدا . . ولكن لماذا تردمون النهر ؟

ثم قال لنفسه :

لذلك ودعنى ومضى .

ومرت الأيام والأسابيع ، وكلما مر يوم تكدست المعدات والأخشاب ، وامتدت قضبان السكة الحديد بمحاذاة النهر ، وبنى العمال لأنفسهم حجرات من الأخشاب والحديد ، كانوا يستعدون بدقة للقضاء على النهر . وعلى القضبان التى امتدت على طول النهر جاءت أول قاطرة تمشى ببطء كأنها عفريت قطار الدلتا . . أكثر كآبه وغرابة انه مثل الصناديق محملٌ بالتراب ، هذا التراب الذى سيهيله العمال فى قلب النهر الآمن ، حتى تسد شرايينه ، ويكف عن مائه . ما اهتز « سيد » مثلما اهتز فى ردم النهر ، وما تألم مثل تلك الأيام . تكوم فى حزنه فى ركن بالدار ، اقتربت جميلة ، وهى تنقى الأرز فى صينية كبيرة ، قالت كأنما تحادث الأرز :

ــ ماذا يمكننا أن نفعل ؟ هو ليس نهرنا . . إنه نهر

الحكومة . . والحكومة حرة فيما تفعل ؟

ووصل خبر هدم الجسور إلى الجميع ، وقال أبو سعدة زاعقا :

ـ يا عالم . . النهر لا . . نسقى زرعنا من النهر . .

وأشار على الغيطان التى ما تزال خضراء على الشاطىء الآخر للنهر وتمتد حتى الأفق :

ـ هل سنمد حنفيات ونروى الحقول .

قال المهندس :

ـ ستفتح الآبار أمام كل حقل . . ياجماعة . . انظروا للمستقبل . . هنا سيكون شارعان متوازيان تفصل بينهما حديقة غناء جميلة بها العصافير الملونة والأرائك البديعة ، والزهور تفوح منها العطور . . سيصبح أهم شارع فى المدينة . . شارع بحارتين . . هل تفهمون ؟

وأشار إلى « سيد » الجالس معهم تحت الشمسية الكبيرة ، وقال لسيد :

ـ أنت تفهم . . التقدم والحضارة يأخذا فى طريقهما أى شىء حتى ولو النهر .

أمسك « سيد » بالخارطة التى أمامهم ، وقال وهو

يتابع الخطوط :

ــ ولكن كل الحضارات قامت على النهر . . والتقدم أيضا . . على النهر يبنون الآن السد العالى . . ومن الماء . سيتولد الكهرباء لإنارة كل القرى . . أليس كذلك !

قال المهندس بعد أن شرب الماء من القلة :

ــ نعم . . نهر أسوان كبير . . بينما هذا حقل للبلهارسيا . . أنت تعرف كل شىء يا سيد . . أتلاعبنى الشطرنج ؟

واعتاد كل أصيل أن يذهب مع المهندس ليلعبا الشطرنج الذى يتفوق فيه « سيد » ويعود بقلب مكلوم ، ويحدث نفسه كالمجانين ، ويأخذ جابر تحت إبطه ، ويهمس له :

ــ النهر . . لو عرضه متر واحد نحافظ عليه . . وننظفه . . البلهارسيا ليست منه . . البلهارسيا منا نحن . . أليس كذلك ؟ اقرأ دورة البلهارسيا يا جابر .

وارتفعت تلال التراب ، كادت تحجب النهر قبل ردمه ، وقال المهندس :

ــ غدا سيتم الردم .

وفى الغد تحركت المعدات الكبيرة الحديثة التى تشبه الحيوانات الخرافية ، ووقف العيال فوق أكوام التراب

عندما بدا من بعيد الردم ، وبدأت الأرض تزحف داخل المجرى . جرت البنت ورمت لعبتها فى النهر ، صاح العيال ورموا بألعابهم ، وصفر الشبان الكبار وعلا الضجيج ، بعدها خرج الجميع ، ورموا الفئوس القديمة ، والقلل ، والحلى الفالصو ، والكرات القديمة ، رمى الرجل طاقيته ، خلسة رمى « سيد » بنصف فرنك مسدس الشكل فى النهر ، وخلسة أيضا جرى جابر وأحضر قلمه الرصاص وذهب إلى أعلى التل ، وصعد ، ورمى بقلمه فى النهر .

لم يرموا بأسوأ ما لديهم . بل رموا بأحب ما لديهم . بكى بعضهم فى العلن ، وقالوا مثلما يقولون فى تشخيص حزن الموت :

ـ الفراق .

وآخرون مثل « سيد » تخفوا وراء الأبواب وبكوا . بينما نزل عباس النهر فجأة عريانَ ، وظل يضرب فى الماء الراكد ، وغاصت ركبتاه فى الطين وكان يبكى ، وفى حالة خروج عن الوعى أخذ يقول :

ـ لن أخرج . . هنا غرق أبى ، وغرقت أختى الصغيرة التى لم أرها .

وهتف وهو يلطخ وجهه بالطين :

ـ حرام . . حرام عليكم .

صفر المهندس بصفارته ، وقفز العمال فى النهر ، وشدوا عباس عنوة ، وخرجوا جميعا بأرجل دامية من أثر الزجاجات المكسورة ، وقطع الصفيح والأمواس القديمة .

صرخ المهندس :

ـ هاتوا سبرتو . . طهروا أرجلهم . . ولى معك حساب يا عباس .

وانهال التراب بعنف ، كأنه شلال حط فى قلب النهر الذى لم ينتح قطرة ماء واحدة ، حتى استكان كل شىء تحت التراب ، حتى أصبح شارعا من التراب ممهدا جميل الشكل مفروشا ، فصرخ العيال ذات أصيل :

ـ هيه .

وانطلقوا يلعبون الكرة ، فتحول إلى ملعب طويل لا ينتهى إلا عند الساحة الشعبية .

لم تمر الشهور عبثا بآلامها على « سيد » فقد مرض فترة من الزمن بلا شىء محدد . كان ممرورا . قرفان . وبماذا يبدل حلمه بالجسور والتماثيل . وقال لأبى سعدة

ذات مغرب وهو يشرب القهوة :

ـ حتى وابور الطحين ، قلت سيبنوا مكانه دارا للسينما . . أو حديقة عامة . . هأنت ترى . . ماذا فعلوا ؟

رد أبو سعدة :

ـ أمرك غريب يا سيد ـ ماذا فعلوا . . بنوا البيوت والدكاكين .

رد سيد بغضب :

ـ أسوأ ماتكون البيوت . . واسوأ الدكاكين . . بيوت على بيوت بلا منفذ . . بلا مساحة لأصيص ورد واحد . . يارجل . .

وزعل من أبى سعدة ، ولم يكلمه طول الليل ، فاضطر أبو سعدة أن يحكى عن أرضه والمبيدات الحشرية ، وحدثه عن ظاهرة ـ بدت لأبى سعده غريبة ـ إذ إن طائر أبوقردان اختفى ، كما أن الحدأة هاجرت ، وما توحشت غير الفئران .

فرد « سيد » طوله على الكنبة ، وأسند رأسه على كف يده اليمنى وقال :

ـ لكن أولادنا فى المدارس . . والكهرباء دخلت القرى . . بل ونضع رأسنا برأس أكبر دول العالم . أليس

صحيحا ؟

وهنا قام أبو سعدة حين لمح الشيخ سيد وقد غفا أثناء كلامه ، وغطته جميلة ، وراح « سيد » فى سابع نومة ليرى النهر مرة أخرى ، لكنه كان نهرا كبيرا واسعا ، تحط فوقه الطيور البيضاء ويزدهر ورد النيل ، وعادت فراخ النهر مرة أخرى ، فغطس « سيد » فى النهر فخرجت إليه بوجهها البديع ونهديها ، دفن رأسه بين نهديها وضربت بذيلها ، فقفز فوق بغلة جرت به حتى دخلت قصرا من البلور الملون بالأزرق والأحمر .

انتتر سيد من نومه ، ونادى جميلة ، وسألها :

ــ جميلة . . هل رجع النهر ؟

بهتت جميلة ، وقبل أن تجيب أو تسأل ، استدرك هو :

ـ ياه . . لقد كنت أحلم .

فى الخارج تلاحمت البيوت ، وتكدست الدكاكين . ضاقت الشوارع والحارات ، اختفى مكان النهر تحت البيوت التى قامت مستندة على بعضها كأنها على وشك الانهيار ، متداعية ، يحط التراب على نوافذها المتواضعة ، والقلل على الشبابيك ، والثلاجات لا تعمل بسبب ضعف التيار الكهربى . سنوات تعاقبت بأحمال من الهزائم ، وكل سنة تترك آثارها من بقايا عفنة ، وتفجرات مواسير المياه ، وطفح المجارى . كل سنة تترك بركة آسنة ، ومزيدا من عفونة الحيونات النافقة . السنوات تمر خالفة أكداسا من الزبالة ، وكناسة البيوت تحيط البيوت .

كان « سيد » جالسا فى صدر الصالة فى بيته الذى أصبح ثلاثة طوابق ، جالسا يشم رائحة العفونة تلك

ورائحة الزبالة ، والصنان . يرمكن ذقنه على كف يده ويحاول التذكر ، ويتذكر أن النهر كان فى ذات المكان الذى تقف فيه عربات كسح الغائط ، وأن كوم الزبالة الذى يجمع فى عناق عفونى بين ريش الدجاج الأبيض وقشر البرتقال ، والكتاكيت الميتة كان بالضبط مكان حط المراكب القديم ، وجسر الدلتا مكانه تحت ترعة رفيعة هى مجرى للمجارى ، والغائط بينما الدكاكين منكفئة على نفسها .

بعينه الكليلتين الضعيفتين لم يعد ير شيئا ، بالكاد لا يرى سوى الخضرة ، تلك الخضرة التى فى الذاكرة ، والحديقة الصغيرة تحولت إلى أعواد صغيرة جافة ، وشجيرات عجوز ، يحط الذباب هنا وهناك ، الظلمة أيضا بلا سبب تحولها لمكان موحش ، والصبار توحش أيضا . بالكاد يميز ضوء الشمس ولون الخضرة .

سمع رنين جرس الباب قويا ، فجرى حفيد له ، وعاد يسرسع لجدته ولأمه ، بينما صوت التليفزيون عالٍ :

ـ حسن أبو سعدة يطلب انبوبة بوتوجاز « استبن » لأن انبوبتهم خلصت .

لا يعرف من رد عليه ، وماذا ستفعل أمه ، بينما العيال كثيرون ، أصواتهم عالية ؛ خنقه الازدحام .

قالت بصوت مسموع :

ـ رحمك الله يا أبا سعدة .

وكان التليفزيون الملون يعرض الأفلام الملونة والأغنيات الملونة وأغانى عن سيناء لا تتوقف . وأحفاده فى حالة من الرقص المستغرب ، والبلاهة . هرش « سيد » شعره الأبيض ، وسأل :

ـ أين . . ؟ أين . . ابنى هذا . . أ . . ؟ !

فقالت جميلة التى كانت ابنة ابنتها تلعب فى شعر رأسها الأشيب :

ـ تريد جابر .

قال سيد كأنما وجدها بعد بحث مضنى :

ـ جابر .

قامت حفيدته ، أمسكته من يده ، سحبته إلى درجات السلم ، الطابق الأول الطابق الثانى . وفى الطابق الثالث تركته ، فاجأه هواء طيب ورائحة قديمة .

تحسس الدرابزين ثم انحرف يسارا حيث جابر فى حجرته فوق السطح .

سمع جابر خطوات الأب ، وكان معه أصدقاؤه . لم يتوقف طويلهم عن إلقاء الشعر ، بينما ذو الوجه الأبيض يتابع الحصان الأحمر السابح فى الماء على جدار الحجرة ،

قام جابر إلى أبيه ، ومد يده ، فدخل « سيد » معه ، سلم على أصحاب ابنه وخرج إلى الشرفة ، فخرج جابر معه ، مد « سيد » يده ، لامس أوراق العنب ، وقال بفرح غامر :

ـ طلعت شجرة العنب إلى هنا . . ياه . .

إلى حيث يحب . .

صمت « سيد » طويلا ، ثم نادى ابنه :

ـ جابر .

اقترب جابر من أبيه :

ـ نعم يا أبى .

قال « سيد »

ـ هل تذكر النهر . . ؟ . . كان هنا نهر . . وذات يوم خرج لى الصياد ببغلته من النهر .

قال جابر بدهشة :

ـ بغلة فى النهر !

قال « سيد » مؤكدا وهو يمسك بكتف « جابر » :

ـ نعم . . على ظهرها صياد . على كتفه أحلام ملونة .

المحلة الكبرى

١٩٩١/٩/١١

مطابع
الهيئة المصرية العامة

للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٦٣٣

I.S.B.N 977 - 01 - 6162 - 4

المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع 1999

٢٠٠ قرشاً

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشاب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة